الرحلات العلمية بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس وأثرها في خصوصية التواصل بين المنطقتين

د. خير الدين شترة

قسم التاريخ – جامعة المسيلة

1. مقدمة:

تأخذ الرحلات العلمية المتبادلة بين منطقتي الجنوب الشرقي الجزائري وتونس مكانًا بارزًا في توطيد أواصر الأخوّة بين الأشقاء في بلاد المغرب، وتنشيط عملية التأثر والتأثير بين وجوه حركة النهضة في هذه البلاد، وتعود فكرة سفر الطلاب الجزائريين إلى تونس لطلب العلم في الجامعة الزيتونية وفي مدارسها إلى أمد بعيد، لكن وتيرتها ازدادت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لعوامل سنعددها لاحقاً، حيث هاجر إليها في البدء أفراد قليلون ثم تكاثرت في العقد الأول من القرن العشرين لتتدفق الهجرات والبعثات بعد الحرب العالمية الأولى حيث صارت تونس هي مقصد كل من يريد الثقافة العربية الواسعة.

لقد تخرّج عن طريق البعثات التعليمية الموجهة إلى تونس قبل الاستقلال من أصيلي الجنوب الشرقي الجزائري حوالي(642) إطارًا تلقوا تعليمًا في المستوى الجامعي (المدارس الصادقية والخلدونية أو في الجامع الأعظم) وهو عدد يفوق ضِعف كل الجزائريين المتخرجين من الجامعة التي أنشأتها فرنسا في الجزائر، وكل الجامعات الموجودة في المتروبول.

ولعل ما يدفعنا إلى الاهتمام بقضية التواصل الثقافي والعلمي بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس هو قِدم هذا التلاقح والاحتكاك العلمي والفكري واستمرارهما عبر العصور، فلئن تعطّلت الاتصالات السياسية والاقتصادية أحياناً فإن العلاقات الثقافية بين الضفتين لم تنقطع؛ وظلّت الثقافة العربية الإسلامية القناة الرئيسة والخيط الرابط بينهما، وتزداد أهمية دراسة العلاقات العلمية من الناحية التاريخية إذا علمنا مدى غزارة المادة التاريخية المتوفرة عن هذا الموضوع في المكتبات ودور الأرشيف، ذلك أن وفرة المصادر والوثائق التاريخية المتعلقة بعملية التواصل الثقافي بين القطرين بصفة عامة وبين تونس والجنوب الشرقي بصفة خاصة؛ لا تمكّننا هنا لضيق المجال من الإحاطة بمختلف جوانب المسألة واستقصاء البحث فيها، ولا يمكننا هنا بطبيعة الحال تعداد كل علماء وطلبة إقليم الجنوب الشرقي وحصرهم وإنما سنكتفي بذكر الأعلام الذين تحوَّلوا فيما بعد إلى رموز للتواصل الثقافي بين القطرين. ومبدئياً سنحصر جغرافياً منطقة الجنوب الشرقي الجزائري في ثلاث أقاليم هي: (تبسة، واد سوف، وبسكرة)، بهدف الخروج بقراءة تقريبية لحجم وقيمة التواصل بين هذه المنطقة الجغرافية الواسعة وتونس، وكذا لدواعي منهجية سندلِّل عليها في حينها.

في الوقت الذي كانت فيه الجزائر تحت التأثير الفرنسي، كانت بالتوازي تحت تأثير آخر أكثر أصالةً وانسجامًا مع طبيعتها وتاريخها، ونعني به التأثير الشرقي الذي حمله الطلاب الذين درسوا في الشرق والحجّاج الذين جمعوا بين أداء الفريضة والزيارات واللقاءات، والمهاجرون الذين أجبرتهم ظروف الاحتلال على مغادرة بلادهم ولكنهم لم ينسوها بل ظلوا يراسلون أهلهم، ولقد لعبت الإجازات والمراسلات دوراً آخر مهماً في الإبقاء على التأثير الشرقي يُضاف إليها

تنقل الكتب والجرائد والمجلات، ورغم إلحاق الجزائر بفرنسا إدارياً وقانونياً، ورغم الغزو الاستعماري الاستيطاني المتكامل فإنها لم تنقطع أبداً عن تراثها الشرقي الموروث، ولا عن حضارتها العربية الإسلامية.

لقد عرف تاريخ الجزائر عدداً من أبنائه الذين توجهوا إلى المشرق مع موجات المهاجرين ونزلوا عواصم وبلدانًا مشرقية، وبتوالي الأيام استقروا وأنجبوا جيلاً من العلماء والسياسيين والقادة في المشرق، وهناك شخصيات هاجرت إلى تونس وأثَّرت فيه وتأثرت به، وهي من أصول جزائرية مهاجرة نذكر منهم: عبد العزيز الثعالبي وصالح الشريف، ومكي بن عزوز، ومحمد الخضر حسين... وهناك من هاجر بنفسه أو هاجر به أهله ثم رجع إلى الجزائر فنقل إليها رصيدًا هامًا من النشاطات الفكرية والإبداعية، ثم أصبح في مقام القيادة، مثل مبارك الميلي، والسعيد الزاهري، وأبو اليقظان وغيرهم ....أما زعيم الجزائر الروحي بلا منازع عبد الحميد بن باديس فقد درس بالزيتونة وأقام في تونس، ثم رجع إلى بلاده وانطلق في مشروعه الإصلاحي المعروف، ويمكننا أن نضيف إلى هؤلاء رعيلاً آخر من الجزائريين ذهب للدراسة في الزيتونة وغيرها، ثم رجع وانطلق في الحياة مدافعًا عن تراث وطنه العربي الإسلامي.

لقد كانت يقظة الجزائر نتيجة الاحتلال قد سبقتها يقظة معظم الشعوب الشرقية الأخرى فالمقاومة الشرسة وما تلاها من تشريد القادة ومصادرة الأراضي وفتح السجون وتعدّد أساليب القمع جعلت تلك اليقظة تبدأ من سنة 1830م، وتبلغ درجة عالية في أواخر القرن التاسع عشر حين تصادفت مع يقظة شعوب أخرى عربية وإسلامية، وإذا كانت يقظة هذه الشعوب قد بدأت بالتحرك السياسي فإن يقظة الجزائر-برحلات علمائها وطلابها- أضافت إلى ذلك المطالبة باحترام اللغة العربية وترسيخها واحترام الشريعة الإسلامية، وقد حشد هذه المطالبة ابن باديس (1913-1940) حين حاول تحقيق مشروعة الحضاري لبعث التعليم العربي والتاريخ الوطني والإصلاح الإسلامي.

2. التطور التاريخي للرحلات والبعثات العلمية من الجنوب الشرقي الجزائري إلى تونس:

لا ريب أن نوعية الشخصيات والأسر التي غادرت الجزائر أثناء تلك المراحل الأولى للاحتلال كانت في الغالب على مستوى من الرقي والمنزلة، ويكفي أن نستحضر أسماء وسيَّر بعض تلك الشخصيات والأسر المهاجرة ونتعرف على شيء مما قُدِّر لهم أن ينجزوه في ديار مغتربهم وما ظفروا به من اعتبار حيثما حلُّوا، لندرك حجم الخسارة التي مُني بها الوطن نتيجة ظاهرة الهجرة التي عرفها يومذاك، فلا نستغرب إذا ما رأينا المفتين يُفتون بعدم جواز هجرة العلماء مخافة أن يلحق الضرر بالناس حين يفتقدون التأطير الفقهي والشرعي.

فقد أفتى الشيخ"علي بن الحفاف" بعدم جواز هجرة العالم عند الضرورة « بقاء العالم للناس خير له من انتقاله لنفسه»[1]، لقد كانت الجزائر قبل الاحتلال تتوفر على احتياط مهم من الكفاءات المعرفية، فعلى الرغم مما يقال عن أحوال المسلمين عامة خلال القرن(19)م وما قبله فإن الجزائر كانت تتوفر على احتياط هام من الكفاءات مما يدل على أن العطاء الثقافي في الوطن لم يكن شحيحًا ولا عقيمًا، وإنما على العكس من ذلك كان عطاءً مثمرًا بدليل أن

[1]- الحفناوي (أبو القاسم)، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، دراسة وتحقيق د. خير الدين شترة، الجزائر: دار كردادة للنشر والتوزيع، 2012م ص82.

الزُمر من حملة العلم والدين الذين غادروا الوطن في تلك المراحل كانت زُمرًا مهمة من حيث النوعية والكفاءة، وأنها أثبتت مستواها ببروزها في البيئات حيث حلَّت واكتسبت الشأن والمكانة[2].

ومن خلال تتبعنا لطلبة العلم أصيلي الجنوب الشرقي الجزائري ومساهماتهم في تونس، والذين عاشوا خلال القرن (19)م تبيَّن لنا أنهم ينقسمون إلى ثلاثة أصناف فمنهم: من استقرَّ بتونس استقرارًا دائماً، وفيهم حتى من دخل في خدمة الحكومة التونسية واستكتب فيها، أما الصنف الثاني فهو الذي أقام في تونس إقامة مؤقتة أو دخلها لفترة محدودة، ثم انتقل منها حيث مقصده الذي كان عادةً مشرقيًا، أما الصنف الذي كان أكثر فعالية فهو الصنف الذي رحل إلى تونس طلبًا للعلم بها وساهم في الحياة التونسية خلال فترة تعلمه فيها ليرجع بعدها إلى بلاده[3].

ويكفي أن نذكّر في هذا السياق بأسرة الشيخ محمد بن عزوز البرجي رب تلك الأسرة البسكرية التي استوطنت نفطة بالقطر التونسي وأسّست زاويتها بها وخرّجت أفرادًا من بينها، ومنهم من بلغ في الشهرة كل مبلغ فقد ارتحل الشيخ"مصطفى بن عزوز" إلى جنوب تونس عام 1837م، وأنشأ زاوية رحمانية بنفطة، ومضت الوفود الطلابية من الجنوب الجزائري ومن الشرق القسنطيني وبلاد القبائل وغيرها؛ تتهاطل على الزاوية، تتزود من تعاليمها وتجدد روحيتها، وتستمر تلك الزاوية على نشاطها الثقافي والمعنوي وسيبرز دورها القومي والوطني في عهد الاحتلال خاصة، إذ ستتحول إلى قاعدة خلفية يلجأ إليها المكافحون الجزائريون، كلما اشتدت الضغوط عليهم[4].

وقد كان للزاوية دور مهم لاسيما في مجال تخريج العلماء والمثقفين والطبقة المتنورة التي كان لها نشاط تعليمي في الجزائر وغيرها من الأوطان المغاربية، وحسبنا أن نحصى أسماء بعضهم من أمثال الشيخ"علي بن عمر(1830-1891)م صاحب زاوية طولقة[5]، وقاسم بن محمد علي الخيراني الجزائري(1890)م[6]، والعربي بن عطية البوعبدلي الشلفي[7] ولعل أشهرهم على الإطلاق هو الشيخ محمد بن عيسى الجزائري(1828. 1892)[8]م العالم باللغة والتفسير، الذي تولى بتونس رئاسة الكتابة العامة ثم خطة الإنشاء سنة1885م، ثم انقطع عن العلم إلى أن توفي وكانت له مساهمات كبيرة في الحياة الفكرية التونسية، ومنهم أيضًا الشيخ عبد الحفيظ صاحب زاوية خنقة سيدي ناجي والشيخ المدني التواتي والشيخ مبارك بن خويدم وغيرهم كثير[9]، وكان شأن الزاوية الرحمانية قد علا بالمكانة التي بلغها الشيخ المكي بن عزوز بن الشيخ مصطفى، فقد نال الشيخ المكي منصب مفتي في نفطة ثم ما برح أن أُستدعي إلى الزيتونة مدرسًا. ونذكر في هذا السياق أن الزاوية العزوزية نفسها قد نشأت من خلال سيرة روحية تلقت مددها ونالت حاجتها

---

[2]- عشراتي(سليمان)، العالم الإسلامي خلال القرنين 18م،19م، الجزائر: دار الغرب للنشر، 2004 ص 225.

[3]- خير الدين (شترة)، إسهامات النخبة الجزائرية في الحياة السياسية والفكرية التونسية، الجزائر، دار البصائر، 2008.م، ص. ص (118- 165).

[4]- عشراتي، المرجع السابق ، 226.

[5]- راجع ترجمته في: - نويهض، المرجع السابق ، ص 189.

[6]- عشراتي، المرجع السابق ، ص 205.

[7]- نفسه، ص 189.

[8]- الحفناوي، المصدر السابق ، ج1، ص 528.

[9]- نفسه، ج2، ص 320.

مما حظيت به من أسباب الفتح في ديار الهجرة والمغترب، إذ ورث الشيخ بن عزوز البرجي السر عن شيخه العالم الصالح الولي الشيخ محمد بن عبد الرحمان الأزهري.

لقد بلغ من كثافة المهاجرين أصيلي الجنوب الشرقي الجزائري إلى الأوطان العربية والإسلامية؛ وإلى تونس بالخصوص حدًا قامت لهم معه كيانات بارزة ومتميزة، واكتسبوا المواقع البارزة، بحيث عاشوا جاليات متلاحمة ومتصاهرة، ويمكننا أن نسترسل في إحصاء أسماء شخصيات وأسر ذات الأصول السوفية أو التبسية أو البسكرية...الخ، التي ساقتها ظروف الهجرة إلى تونس، وكتب لها أن تحقق وجودها بما نالت من علم وأنجزت من أعلام ليس لأن البيئة هناك قد ساعدتها على البروز، أو أن الحظ كان على موعد معها، ولكن لأنّ تلك الشخصيات والأسر كانت مهيأة للظهور، وأنه لم يدفعها إلى الإقدام على التغرُّب إلا ما كان لها من شأن، وإلى ما كانت تشعر به من همَّة أبت عليها أن تُساكن ظروفًا لا تفِيَها حق الإنسانية الكريمة.

لقد كانت الجزائر من أسبق شقيقاتها في العالم العربي الإسلامي ابتداء بالغزو الأوربي ممثلا في الاحتلال الفرنسي الذي كان فريدًا من نوعه في البلاد العربية والإسلامية، فقد كانت هجمة صليبية تغريبية وحربًا عوانًا على القدرات المعنوية للشعب الجزائري: عقيدةً ولسانًا، تراثًا وحضارة، كما كان هذا الغزو نهبًا فظيعًا للأموال والثروات، واستيلاءً جشعًا على الممتلكات، فأصبح الشعب الجزائري نتيجة لذلك يعيش في عسرة من أمره ما بين جور وقهر وحرمان[10].

وقد ظلت الجزائر لذلك في ثورة مستمرة ترفض الغزو وتقارع الظلم وتدفع العدوان متطلعة إلى ما يشد أزرها في هذه المعركة المصيرية، ويكون عونًا لها على التخفيف من حدة معاناتها ويرفد حركتها بالمدد على طريق النهضة والتحرر، فمدت يدها إلى الأشقاء في الوطن العربي مشرقة ومغربه حيث كانت رياح النهضة الحديثة تهب على الربوع هناك فكانت الاستجابة وكانت الثمار الطيبات، وكانت أسباب الصلة متعددة يأتي في مقدمة ذلك البعثات التعليمية والرحلات.

وأما البعثات فتأتي على رأسها تلك التي تتوجه إلى جامع الزيتونة بتونس هذا الذي كان الطلبة الجزائريون يلتحقون به في أول الأمر أفرادًا ثم كانت أول بعثة تعليمية منظمة منهم إليه عام 1913م، فكان لهذا المعهد العلمي مكانة مميّزة في قلوب طلاب العلم من الجزائريين، هؤلاء الذين كانوا يشدّون الرحال إليه فينهلون من علم شيوخه ثم يعودون إلى بلادهم حاملين رسالات العلم؛ فيندمجون في مؤسسات النهضة الوطنية مصلحين ومعلمين، أدباء وصحفيين فكان لهؤلاء وغيرهم الأثر البالغ في النهضة الوطنية العامة. وعن ذلك تحدّث المدني قائلاً: «ويمكن أن نسمي الفترة المعاصرة التي تعيشها الجزائر بعصر النهضة العربية بالجزائر، حيث نبغ فيها العدد الكبير من الأدباء والكتاب والعلماء منهم من تخرّج من كلية الزيتونة بتونس ومنهم من تخرّج من المدارس الحكومية الثلاث، ومنهم من ارتوى من مناهل المشرق كالأزهر الشريف ومساجد الحجاز والشام... والكثير منهم لم يتلق علومه إلا بالزوايا الصحراوية والقبائلية... ولم تبق الجزائر الإسلامية في هذا العصر منعزلة عن العالم العربي فأصبحت متأثّرة بكل الحركات العلمية والأدبية العربية التي يحملها إليها الطلاب من مصر وتونس والتي تحملها إليها الكتب والصحف والمجلات الشرقية»[11].

[10] – بن سمينة (محمد)، في الأدب الجزائري الحديث، الجزائر: مطبعة الكاهنة، 2003م.، ص 58.

[11]– المدني (أحمد توفيق)، كتاب الجزائر، (ط1، 1931)، الجزائر: دار الكتاب، 1963م ، ص92.

لقد ابتدأ سفر الطلاب الجزائريين إلى تونس لطلب العلم في الجامعة الزيتونية وفي مدارسها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هاجر إليها أفراد قليلون منهم الشيخ الحاج سعيد بن يوسف اليسقني الذي رجع من تونس حوالي 1870م فتولى التدريس في ميزاب، ثم ابتدأت الهجرة إلى تونس لطلب العلم تكثر في العقد الأول من القرن العشرين لتتدفق الهجرات والبعثات بعد الحرب العالمية الأولى حيث صارت تونس هي مقصد كل من يريد الثقافة العربية الواسعة.[12]

لقد تخرّج من أقاليم الجنوب الشرقي الجزائري عن طريق البعثات التعليمية المنظمة والموجهة إلى تونس خلال الفترة «1900-1956»حوالي(642) إطارًا تلقوا تعليمًا في المستوى الجامعي (المدارس الصادقية والخلدونية أو في الجامع الأعظم) وهو عدد يفوق ضِعف الجزائريين المتخرجين من الجامعة التي أنشأتها فرنسا في الجزائر، وكل الجامعات الموجودة في المتروبول، بينما كانت حصيلة التكوين العالي الذي تم في مؤسسات الاحتلال الفرنسي وفي فرنسا نفسها لا يتجاوز 100 إطار من بينهم 15 بين طبيب وصيدلي وطبيب أسنان و20 بين مهندس وتقني متخصص وأعداد ضئيلة من المحامين والقضاة والموظفين ومن هم في سلك التعليم وغيره... وأغلب من تخرَّج من جامعاتها سواءً بالجزائر أو بفرنسا لم يرجع إلى موطنه الأصلي (تبسة، واد سوف، بسكرة) بل آثر الاستقرار بالمدن الكبرى.

لقد وجد أصيلي الجنوب الشرقي في جامع الزيتونة موردًا عذبًا في الوقت الذي افتقدوا فيه إلى معلم حضاري مثله ببلادهم، وكانت السلطات الفرنسية تتوجّس من الذين درسوا في الزيتونة وكانت لا تفسح المجال لتوظيفهم لأنهم لم يتخرَّجوا من المدارس الفرنسية الرسمية، وكانت تعتبرهم من المتمردين عليها، ولا ندري إلى أي مدى كان طلبة الأقاليم الثلاث يقصدون الزيتونة قبل احتلال تونس سنة 1881م، والظاهر أنّ دراستهم فيه كانت محدودة قبل عام 1900م[13].

فقد تميّزت هجرات الطلاب الجزائريين المبكّرة بأنها كانت نتيجة رغبة شخصية أو مبادرات فردية ولم تشهد البلاد – مسار الوسط–[14] قبل الخمسينات بعثات طلابية منظمة سوى بعثات الطلاب الميزابيين الإباضيين التي أخذت تتوافد إلى تونس بصورة منتظمة ابتداء من عام 1914م، ولم تحاول جمعية العلماء إيفاد بعثات تعليمية منظّمة إلى خارج البلاد وعلى الأخص إلى المشرق العربي إلا في عام 1951م[15] .

وتبرز هذه الرحلات تمازج الشعبين التونسي والجزائري وعمق التبادل العلمي والتجاري بينهما، فقد تجسّدت هذه الصلات حتى في التعاملات التجارية بين القطرين، مما يبرز أيضًا أن هذه الرحلات كانت ذات علاقة وطيدة في المشاعر العميقة التي ظل يُكنّها خريجو الزيتونة لدور تونس ودور جامع الزيتونة في النهضة الإصلاحية بالجزائر وفي إثراء الحياة العلمية والثقافية؛ فهذه الرحلات العلمية تقدّم لنا صورة عامة عن الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية التي كانت تسود القطرين من الثلث الأول من القرن العشرين إلى ما بعد منتصفه بقليل، وقد كان من أغراضها الأخرى

---

[12]– دبوز (محمد علي)، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، الجزائر: المطبعة العربية، 1971م.ص20.

[13]– سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ،ج5، ، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998م ص491.

[14] - كناية على طلبة الأقاليم الثلاث، بينما مسار الشمال فتمثله مناطق الشمال القسنطيني والقطاعين الجزائري والوهراني بينما مسار الجنوب فيمثله طلبة واد ميزاب وورجلان وتوات وباقي مناطق الجنوب الكبير.

[15]– الخطيب (أحمد)، ج.ع.م.ج وأثرها الإصلاحي في الجزائر، الجزائر: م.و.ك، 1985م ، ص 217.

أيضًا هو محاولة إحياء أواصر القرابة والمصاهرة والوشائج القبلية والدموية وغيرها مع المهاجرين الأوائل إلى تونس[16].
ومرت هذه الرحلات بمرحلتين مهمتين هما:

أ/ المرحلة الأولى: (العفوية المعزولة):

كانت الرحلة العلمية من المغرب إلى المشرق إحدى السمات البارزة التي طبعت الاتجاه العلمي المغربي منذ الفتح الإسلامي وحتى دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر في سنة 1830م، فقد كان العلماء المغاربة بحكم تشوّقهم للتفقّه في أمر الدين الجديد يتشوّقون لشد الرحال قصد الأخذ عن العلماء المشارقة الذين نالوا شهرة واسعة.

ومنذ القرن الثاني للهجرة تتابعت قوافل طلبة العلم تحدوها العزيمة القوية وحبّ الاطلاع والرغبة في تمتين أواصر اللُّحمة وتعزيز الإسلام واللغة العربية، وغالبًا ما كانت هذه الرحلات تُشفع بأداء مناسك الحج أو مجاورة الحرم النبوي الشريف والتتلمذ على كبار علماء مكة والمدينة[17]، «وما صارت أفريقية دار علم إلا بعد أن خرج من أهلها رجال إلى المشرق في طلب العلم، وقفلوا من المشرق يحملون علم الشريعة، وهم أصحاب مالك بن أنس منهم علي بن زياد التونسي(ت138ه) وهو أول من أدخل الموطأ إلى المغرب، وابن أشرس والبهلول بن راشد القيرواني، وعبد الله بن غانم القيرواني، من كبار أصحاب مالك بن أنس فجاؤوا بعلم الحديث والفقه وعلم العربية».[18] وبفضل هذه النخبة التي كانت طليعة الرحالين العلماء أصبحت القيروان أحد المراكز الإسلامية البارزة في ربوع أفريقيا والمغرب يقصدها طلبة العلم من جميع المدن والجهات ليتتلمذوا إلى كبار علمائها ثم يعودوا إلى جهاتهم فيبثُّون علمهم ويجلسون للتدريس بالمساجد أو يُواصلون الرحلة إلى المشرق للاستزادة والإجازة والحج، وقد أغنى هؤلاء العلماء تلاميذ إفريقية على الرحلة إلى المشرق وكَفَوْهم عناء الأسفار والمشاق، ولم تعد الرحلة إلى أبعد من القيروان تستهوي غير البعض من التائقين إلى أداء المناسك، والراغبين في التوسّع والسياحة والالتقاء بعلماء الأقطار[19].

ويذكر ابن عاشور بهذا الصدد «بأن المغاربة قصّروا الرحلة نحو المشرق منذ قدوم سحنون سنة 191ه واشتغل علماؤها بالأخذ عنه لما رأوا من سعة علمه ونقده، وقصّروا عن الرحلة التي كانت تفتح الأبصار على تقدم المشرق، فلذا فاتهم نقل العلوم العقلية»[20]، ولهذه الرحلة من أنحاء الجزائر في اتجاه القيروان آثار هامة للغاية حيث شكّلت في أطوار مدّها وجزْرها جسورًا من العلاقات العلمية والثقافية ورسمت سبلاً للعلم وأعادت تشكيل الخارطة الجغرافية العلمية بين المدن والقرى وبعثت روح التنافس بين الكثير من المدن الساعية إلى فرض سمعتها وسيطرتها واكتساب صيْت علمي، وقد شكّلت في أطوارها المختلفة صورة عن وحدة التفكير والعقيدة والانتماء إلى المدرسة المغربية وجنّبت الكثيرين مشاكل ما كان يسود المشرق من اختلاف الرأي وتعدد في المذهب والنحلة، وتفاخر بالجنس وتعصّب الطائفة.

ولو تتبعنا مسالك الرحلة العلمية بين القطرين الجزائري والتونسي للاحظنا أنها تتميز بتبادل المواقع، كلما آنست في هذا الموقع أو ذاك إمكانية تشجيع على الاستقرار والإبداع سواءً من طرف أمير معجب بالعلم ميال إلى أهله، أو

16- الجابري (محمد الصالح)، رحلات جزائرية، بيرو: دار الغرب الإسلامي، 2001م، ص23. الأرقش(دالندة)، الأرقش(عبد الحميد)، بن طاهر(جمال)، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، تونس: مركز النشر الجامعي، 2003م، ص290

[17]- الجابري (محمد الصالح)، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، تونس: الدار العربية للكتاب 1983م ، ص17.

[18]- بن عاشور (الطاهر)، أليس الصبح بقريب، تونس: الشركة القومية للنشر، 1967م ، ص67.

[19]- محمد الصالح الجابري، النشاط العلمي، ص 18.

[20]- ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص 67.

من قبل مدينة اشتهرت بحب علمائها والتعاطف معهم، والانجذاب إليهم، وفي هذا الإطار من تبادل المواقع نجد ابن رشيق (ت1071م) مثلاً يُحبّذ الإقامة بالقيروان بعد أن نزح إليها صغيرًا من بلدته المسيلة بالجزائر، مثلما آثر عبد الرحمان بن خلدون (ت1406) في الاتجاه الآخر قلعة بني سلامة بالجزائر لكتابة مقدمته الشهيرة بعد أن خرج من مسقط رأسه تونس يجوب أقطار المغرب والأندلس، ونظراء ابن خلدون وابن رشيق عديدون تذكرهم كتب التراجم، وقد خرجوا من تونس أو من الجزائر للاستقرار والإقامة بهذا البلد أو ذاك. وإذا أخذنا بعين الاعتبار العامل الزمني تأتي تونس في المقدمة لحركة طلاب العلم الجزائريين بحيث جلبت القيروان كمركز حضاري وسياسي واجتماعي أنظار هؤلاء إليها واستهْوت الكثير منهم فألِفوا سماءها وهواءها وعاشوا بين أحضانها ردحًا من الزمن ولم ينتقلوا منها إلا مجبَرين.[21]

وحسب تتبعنا لحركة طلبة العلم الجزائريين وهجراتهم من خلال جملة من المصادر والوثائق وانتقائنا لعيّنة منهم في تونس عبر عشرة قرون (أي فيما بين القرنين 10م – 20م)، تبيّن لنا أن هجراتهم مرت بعدة مراحل هامة وما يهمنا فيها هي المرحلة الأخيرة(القرن 19م-القرن 20م) (13- 14ه) وقد كان لكل مرحلة من هذه المراحل علاماتها ومميّزاتها الخاصة بها.

وترجع أولى الرحلات العلمية الجزائرية المنطلقة من الجنوب الشرقي إلى تونس إلى القرن (09م/03ه) غير أن هذه المرحلة وما يليها، من مميزاتها أن أعداد طلاب العلم فيها قليلة وبينهم من طالت به الإقامة في تونس إلى حد أنه انصهر في بوتقة مجتمعها وصفوفها العلمية وتأقلم مع بيئتها الثقافية والسياسية الشيء الذي جعله شيئًا فشيئًا يفقد جزائريته لينتحل صفة الوسط العلمي والثقافي الذي كان يعيش فيه[22]، وقد يكون أول واضع لأسس فن النقد الأدبي والنقد عامةً في أفريقيا قديمًا، ومثله كذلك إسحاق بن أبي عبد الله عبد الملك الملشوني (البسكري أصلاً) المتوفى حوالي (226ه/ 841م)، وقد برع هذا الأخير في عدة علوم من علوم عصره، بحيث جالس الإمام سحنون، وأخذ كل منهما عن الآخر كما قرّبه الأمير محمد بن الأغلب (206-242)ه إليه وخصّه بمكانة مرموقة في بلاطه لعلمه الوافر واطلاعه الواسع.

ومن الذين قادوا حركة الرحلات العلمية إلى تونس في الفترة اللاحقة نجد أحمد بن محمد البسكري (846-890) ه، والطولقي إبراهيم بن محمد الأخضري المتوفي (899-1494)ه، العارف بأصول واللغة العربية والمنطق وعلم الكلام والحديث وغيرها من علوم عصره[23].

وعموما فلئن اتسمت هذه المرحلة المتقدمة بالعدد القليل من العلماء الذين ربطوا الصلة بينهم وبين تونس بالرحيل إليها للتحصيل والاستزادة ثم الرجوع إلى وطنهم الأصلي ومنهم من مكث مدة طويلة ورجع، ومنهم من استقر نهائيا إلى أن وافاه أجله هناك؛ وفي العصور التي تلي سنلاحظ التآزر تتوثق عراه تقريبًا بشكل يجعلها صعبة التفكك بعد ذلك وبغض النظر على الأوضاع السياسية وما نتج عنها من تطورات فإنه يبدو لنا أن العوامل الحضارية واللغوية والدينية والاجتماعية كانت أقوى في تثبيت العلاقات وتطوّرها إيجابًا بين الشعبين الجزائري والتونسي عبر العصور.

وقد اشتهر من غير هؤلاء كثيرون ممن وفدوا على القيروان من الجزائر أيام كانت عاصمة علمية فكرية على الخصوص في العهد الأغلبي وعندما شاءت «تلك الظروف أن تنطمس أو تكاد أضواء القيروان والمهدية تاركتين لمدينة

---

[21]- هلال (عمار)، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية، الجزائر: د، م، ج، 1995م ، ص 64.

[22]- شكيب(أرسلان)، الحلل السندسية والآثار الأندلسية، ج1، مصر:1945م، ص270.

[23]- نويهض (عادل)، معجم أعلام الجزائر، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، 1983م ، ص185.

تونس ثقل المسؤولية في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة؛ تقدمت هذه المدينة في أكثر الأحيان مدينة(بجاية) التي نازعتها سؤددها وسلطانها العلمي والحضاري تركت ورائها مدنًا كثيرة أخرى كان لها بعض المجد أو العمران، أو الشهرة مثل القيروان وقسنطينة، في درجة دونها بسكرة وتوزر وقابس وطرابلس، وهكذا باشتهار مدينة تونس، وانتقال مركز الثقل العلمي إليها منذ العصر الحفصي، وما عُرف عن الحفصيين من احتفائهم بالعلماء وبإنشائهم للجوامع والمدارس وترتيب القوانين لها اختصرت طرق العلمية بين الحواضر والمدن الجزائرية، وأصبحت المسافة الفاصلة بينها وبين تونس العاصمة أيسر سبيلاً، وأقلّ جهدًا في صحبة القوافل الوافدة عليها سواء من قسنطينة أو بلاد العنّاب أو حتى من بجاية وبسكرة وورقلة في جنوب الجزائر.

وقد نبغ في رحاب هذا الجامع الأعظم مئات العلماء الجزائريين، وأسهموا في حركته العلمية إسهامًا مرموقًا، فكانوا من تلاميذه النبغاء ثم أصبحوا من علمائه ومدرسيه وفقهائه وخطباء منابره، ويذكر في عداد هؤلاء النبغاء الجزائريين إبراهيم بن يخلف التنيسي (ت1272)م[24]، والشيخ عبد المنعم الغساني الفقيه الأديب العالم بالفرائض، والمحكم بصناعة التوثيق والذي كان يقال بأنه يحب الجري في قضائه على طريقة سحنون قاضي قضاة المغرب، كما أن المشارقة في الديار المصرية يعملون بأقوال ابن المواز.[25]

غير أن حركة البعثات العلمية الجزائرية نحو تونس خلال القرنين(14م-15م)-(8هـ-9هـ) كانت في أزهى الفترات وأغناها تواصلاً بين القطرين الشقيقين، وذلك بواسطة صفوتها المثقفة، بحيث نلاحظ ما يربو عن عشرين عالما جزائريًا من الجنوب الشرقي خلال قرن واحد(14م) قد ربطتهم صلة ما بالقطر التونسي ولعل أقوى مثال على ذلك هو المقَّري محمد بن أحمد بن أحمد الزابي أصلاً التلمساني إقامةً[26]، والطولقي إبراهيم ابن محمد الأخضري البسكري (ت899هـ)، الذي تصدى للتدريس والإفتاء بتونس وتوفي بها، والقسنطيني أبا القاسم ابن محمد الوشتاني(ت847هـ) قاضي الجماعة في تونس، والعلمي يحي(ت888هـ)، والنقاوسي أبو الطيب(848-898)هـ.

وممن نوّهت به كتب التراجم من أعلام الجزائريين الدارسين بجامع الزيتونة خليل الصنهاجي[27] (ت1423م) تلميذ بن عرفة، ومن الجزائريين الذين عرفوا بالصّلاح والنبوغ والانكباب على العلم وتولوا التدريس بجامع الزيتونة الشيخ عاشور القسنطيني الذي يصفه صاحب(ذيل البشائر) بأنه عالم جليل فاضل، وممن جلسوا للتدريس بتونس أيضا أحمد بن عمار الذي هاجر إليها في القرن الثاني عشر للهجرة وتثقَّف على يد نخبة من رجالها وتولى الإفتاء بها، ومن تلاميذه الذين درسوا عليه بتونس إبراهيم سيالة، وأحمد الغزال الجزائري ومن آثاره كتاب في التاريخ عن حكم على باي تونس يومئذ[28].

وقد يُلاحظ القارئ ببساطة الكساد الثقافي والعلمي الذي يُميّز هذه الفترة والتي تليها «فترة الحكم العثماني، في كل من الجزائر وتونس، وقد انعكس هذا الفتور على حركة طلاب العلم من الجزائر باتجاه تونس، غير أن هذه الظروف الصعبة وفترة الانحطاط الثقافي التي دخل فيها المغرب الكبير، لم تمنع بعض علماء الجزائر من البروز في علوم عصرهم؛

---

[24] - نفسه، ص 12.

[25] - نفسه، ص259.

[26] - نفسه، ص318.

[27] - نفسه، ص72.

[28] - سعد الله (أبو القاسم)، منطلقات فكرية، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2007م ، ص. ص (69-70) .

ولكن كان عددهم قليل جداً، والحق أن هذه الوضعية كانت عامة وسادت العالم العربي بل الإسلامي بأجمعه الذي بدأ في التأخر ليترك المجال فسيحاً لحضارة الغرب الزاحفة عليه، وبما أنَّها عصور انحطاط فكري فإن المرء لا يجد فيها عالما جزائرياً واحداً ذا شهرة وصيت في تونس وكل ما هناك أننا نجد بعض الأسماء كان بإسهامها الفكري في تونس لا يكاد يذكر ولا يُجسّد ما نطمح إليه من خلال هذه الدراسة، ولعلّ من أشهرهم: الثعالبي عيسى بن محمد بن عامر الجعفري(1020-1080)هـ، وأحمد التجاني(1150-1230)هـ كما أن كتب التراجم والسير تذكر أن الفكون قاسم بن يحي(ت965هـ) قد واصل دراسته بتونس وولي الإمامة بها وعلى منواله يأتي ذكر عاشور بن عيسى القسنطيني (1576-1664)م، وعزوز بن مصطفى (1768م) مؤسس الزاوية الرحمانية بنفطة[29] والرحموني أحمد الصالح (1739-1826)م.

وبنهاية القرن التاسع عشر ميلادي وبداية القرن العشرين تدخل حركة العلماء الجزائريين أصيلي الجنوب الشرقي نحو تونس مرحلة أخرى ذات أهمية كبيرة وهي المرحلة التي تعنينا في هذه الدراسة بحيث أنها تمتد زمنياً من بداية القرن العشرين إلى منتصفه، وقد أحصينا خلال هذه الفترة ما يناهز (642) طالباً عاشوا ما بين القرنين (19- 20)م.

ب/المرحلة الثانية: الجماعية (المنتظمة):

إن بداية القرن العشرين هي بداية مرحلة هامة في عملية التواصل العلمي بين الجزائر وتونس وهي لكليهما مرحلة لنهضة شاملة لا مثيل لها في القرون الثلاثة الأخيرة(عصور الانحطاط) من حيث المجالات الثقافية والسياسية والاجتماعية والدينية، وإذا كان القرن (19م) قرن الحوادث الجسام التي شهدتها منطقة المغرب الكبير ومنها على الخصوص انتهاء العهد العثماني في كل من الجزائر(1830م) وتونس(1881م) وإحلال الاحتلال الفرنسي محلها وفشل المقاومة المسلحة في كلا القطرين؛ فإن الربع الأخير منه وبالأخص العشرية الأخيرة وبالنظر إلى أوضاع المنطقة السياسية والثقافية والاجتماعية قد جعل الجزائريين يلجئون إلى طرق وأساليب أخرى لتصفية حساباتهم مع الاستعمار الفرنسي في البلاد وذلك باستعمال الوسائل التي جلبها الاستعمار معه، المادية منها والمعنوية كالطباعة والصحافة وتأسيس النوادي والمدارس والجمعيات[30].

وإذا نظرنا إلى أخريات القرن التاسع عشر نجد أن هذه الفترة جسّدت همزة وصل زمنية بين عصور الانحطاط الثقافي والعلمي في الجزائر وعصر النهضة، فخلالها تهيأت ثلة هامة من الصفوة الجزائرية وأخذت على عاتقها مهمة النهوض بالبلاد ثقافيًا وعلميًا والتي لم تجد بدًا لتأدية مهامها على أكمل وجه ممكن أن تقصد تونس وبالذات جامع الزيتونة لتغْرف هناك من مناهل العلم ما تيسّر لها ثم تعود إلى موطنها الأصلي دون أن تقطع الصلة بينها وبين تونس بل كانت إقامة هؤلاء هنالك عاملاً هامًا في ربط الصلات بين الجزائر وتونس، وما يلاحظ على هذه الفترة التي هي من أهم فترات تاريخ الجزائر المعاصر أنها أنجبت كل العلماء والشخصيات السياسية التي تعلَّمت وتثقَّفت ثقافة عربية إسلامية، والتي قُدِّر لها أن تمسك بزمام الأمور لتلعب الدور الريادي المنوط بها أو على الأقل أن تحتل مكانة مرموقة في الصف الثاني للحركة النهضوية الوطنية.

---

[29] - دبوز (محمد علي)، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج1، الجزائر: مطبعة دار البعث: 1976م ، ص 65.

[30] - A.N.T, série D, C182, Dossier 03, N.P141, D. Ex(1983-1942)-
A.N.T, Série D, C182, Dossier 03, doc n°(1-2 -3-10)

ولكن أشهر هؤلاء إطلاقًا هو الإمام الشيخ عبد الحميد ابن باديس(1889-1940)م واضع أسس النهضة المعاصرة الجزائرية بحيث كانت رحلته سنة (1908م) نحو جامع الزيتونة طلبًا للعلم فاتحة عهد جديد بين القطرين الشقيقين[31]، ومن أوائل تلاميذ ابن باديس من أصيلي الجنوب الشرقي والذين درسوا مثله في الزيتونة وتخرَّجوا منها بين سنتي (1924-1925م)، العربي التبسي، والسعيد الزاهري وعبد السلام القسنطيني ومحمد العيد آل خليفة... ويعتبر هؤلاء بالإضافة إلى آخرين السنَد الأساسي الذي استند إليه ابن باديس لوضع ركائز حركة علمية تربوية وإصلاحية دينية لنفض الغبار على المجتمع الجزائري وإيقاظه من سباته العميق[32]. وقد ترافق مع هذه الرحلات العلمية التي تنطلق بتحريض من الشيخ ابن باديس انطلاق دعوات في الجنوب الجزائري لإعداد النشء وتوجيهه نحو الزيتونة لينهَل هنالك من منابع العلم والمعرفة انطلقت من وادي ميزاب أول بعثة علمية في اتجاه الجامع الأعظم.

وهناك مسار ثالث بين المسارين السابقين(الشمالي والجنوب الصحراوي) وهو مسار الوسط أو الجنوب الشرقي الذي كان يقتصر في بدايته على ارتياد الزوايا والكتاتيب والمدارس الواقعة على مقربة من الحدود الجزائرية-التونسية وهو المسار الذي تمثله أقاليم تبسة ووادي سوف وبسكرة، بموقعها الجغرافي المتألق بين قسنطينة في الشمال ومجموع مدن الجنوب (بسكرة ووادي سوف، ووادي ميزاب)، وكان هذا المسار يتخذ من مدينتي تبسة ووادي سوف منفذًا للعبور إلى المدن التونسية القريبة، ويُغرى أبناء هذه المنطقة على الهجرة العلمية بصورة مستمرة، يصف مالك بن نبي طبيعة هذا التبادل الثقافي في مسار الوسط ونوع البعثات التي كانت ترحل من مدينة تبسة في اتجاه مراكز التعليم بنفطة التونسية فيقول: «كان في تبسة فوران من الأفكار حقًا يحفظه ويرعاه ويصونه العلماء الذين أخذوا يعودون من الشرق، ولا يفوتنا هنا أن نذكر هنا أنهم كانوا يحفظون سنّة من تبسة سنّها شيخ من نفطة والتي كانت حينذاك في الحدود الجزائرية التونسية المركز الثقافي الذي كان يؤمه طلاب العلم الذين كانوا قد حفظوا القرآن الكريم على ظهر قلب في زاوية سيدي أبي سعيد أو في زاوية سيدي عبد الرحمان والذين لم يكونوا قادرين على القيام بدراساتهم العليا في الزيتونة وبذلك المركز إنما كانت الثقافة الإسلامية تشعّ خلال الجنوب القسنطيني كله، وفي بداية هذا القرن كان المركز يديره شيخ جليل يسمى الشيخ سيدي محمد بن إبراهيم كان يأتي بصورة منتظمة ليقضي فصل الصيف...».[33]

ويروي الشيخ محمد خير الدين «أنه وبعد تزايد عدد الطلبة المتخرجين من المعهد (شهادة الأهلية) والراغبين في مواصلة دراستهم، اتصلت إدارة معهد بن باديس بجامع الزيتونة في تونس وفتحت المجال لتخرّج عدد كبير منهم بحيازة شهادة التحصيل، ومن بين هؤلاء نفر من الجنوب الشرقي عادوا إلى المشاركة بالتدريس في مدارس الجمعية بالجزائر، أو اتجه إلى الجامعات في البلاد العربية أو غيرها[34]، كما يذكر الطاهر فضلاء أن مدرسة التهذيب بوادي الزناتي التابعة لجمعية العلماء نظّمت عدة بعثات طلابية باتجاه جامع الزيتونة أشهرها : البعثة الأولى عام 1964م وأعضاؤها هم : أحمد هادي طيروش، عبد الحميد مهري، محمد بومدين، محمد مزيود، محمد الصالح رحاب، عمار شطيبي، عثمان عيساوي زيتون، الزواوي بن السباعي، والبعثة الثانية عام 1848م وأعضاؤها هم: خوجة بلعكون، عبد المجيد كحل الراس، عبد الرحمان مهري، إسماعيل بوالذروع، حدوش مطيش،... كما أوفدت مدرسة"أم القرى" للتربية والتعليم

---

[31]- فضيل(عبد القادر)، رمضان محمد(الصالح)، إمام الجزائر عبد الحميد ابن باديس، الجزائر: دار الأمة، 1998م، ص27.

32- هلال (عمار)، نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954م، الجزائر: دار هومة، 2004م ، ص89.

[33]- مالك (بن نبي)، مذكرات شاهد القرن، ج1، تر: مروان القنواتي، بيروت: دار الفكر، 1969م ص134.

[34]- عباس (محمد)، رواد الوطنية، ج2، الجزائر: مطبعة دحلب، 1992م ، ص 372.

بتازمالت بعثة طلابية أولى إلى الجامع في أكتوبر 1956م عددها 26 طالبًا وانضم منهم ستة لجيش التحرير الوطني فهم: إسماعيل أويحي، محمد الشريف بن صادق، لحلو ملعب، مقران أوشيحة، صالح أولبصير، عبد الرحمان ميهوب، والأخيران منهم قد استشهدوا في القتال.[35]

وكان من الطبيعي بعد اتساع حركة جمعية العلماء التعليمية وشمولها لمراحل التعليم العام تقريبا ألا تتوقف جهودها عند هذا الحد من النشاط والنجاح، ففكرت في عام 1951م في توجيه البعثات العلمية إلى المعاهد والجامعات العربية في مختلف أقطار الأمة العربية، كانت أول بعثة لها خارج نطاق المغرب العربي هي التي أرسلتها إلى مصر في العام الدراسي (1951- 1952)م وقد ضمّت خمسة وعشرين طالبا وطالبة واحدة توزعوا على مختلف أقسام كليات الآداب ودار العلوم والكليات الأزهرية[36]، ثم توالت البعثات في السنوات التالية.

كما أن أمر البعثات الطلابية هذه لم يكن بأي حال من الأحوال حكرًا على جمعية العلماء المسلمين ومدارسها الحرّة فقط وإنما شاركها فيه عديد التيارات الزوايا والطرق الصوفية والمنظمات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية على امتداد انتماءاتها التي تتراوح بين الاتجاه الاستقلالي الراديكالي والاتجاه الإصلاحي المعتدل، يضاف إلى ذلك إسهامات الأشخاص والمجموعات التي هي الأخرى قامت بمبادرات مميّزة في هذا الباب حيث تكفلت بعديد الطلاب الراغبين في الدراسة بتونس، ولعل أهم مظهر من مظاهر المشاركة المادية والمعنوية للأشخاص في دعم هذا الاتجاه هو الدور الريادي الذي قام به العقيد عميروش إبان الثورة الجزائرية.

3. دوافع الرحلات والبعثات العلمية من الجنوب الشرقي الجزائري نحو تونس

يذهب جلُّ الباحثين والمهتمين بالحركة الثقافية والعلمية في الجزائر إلى أن رحلة علماء الجزائر وطلاب العلم رحلتان، إحداهما مشرقية وأخرى مغربية، غير أن التعمُّق في البحث قد يثبت غير ذلك إثباتًا قاطعًا، ذلك لأننا وقفنا على علماء جزائريين رحلوا إلى الأندلس في فترات متقدمة من دخول الإسلام إلى إفريقيا قبل أن يرحلوا إل المشرق العربي، وأن بعضهم قبل أن يقصد هذا الجزء الأخير من الوطن العربي اتجه إلى العاصمة الأولى العلمية والثقافية التي هي القيروان، وفي فترة متأخرة نسبيًا (ق6هـ -ق12م)،أضحت فاس محطة أخرى لعلماء الجزائر وطلابها فقصدها البعض منهم للتفقه في دينه ودنياه[37]، ولقد تعددت أسباب هذه الرحلات العلمية وتنوعت دوافعها ويمكن أن نميّز من بينها:

- ✓ الرحلة فرارًا من جور الظالمين، وذلك لاكتساب المدد وإعداد العدة للكرة عليهم، وإخراجهم من البلاد ذودًا عن الدين والوطن، وخصوصًا بعد صدور قانون التجنيد الإجباري للجزائريين في الجيش الفرنسي عام 1912م، وكان الإصرار على رفض هذا التجنيد من أبرز أسباب هذه الهجرة.
- ✓ الرحلة بقصد زيارة البقاع المقدسة بالحجاز كهدف أولي، حيث كانت هذه الرحلة للحجيج الجزائريين تسمح لهم وهم في طريق ذهابهم أو عودتهم أن يعرّجوا على بعض البلدان الشقيقة، فيربطوا بعض الصلات الأخوية والثقافية مع بعض رجالاتها مفكرين وأدباء، وكثيرًا ما كانوا يستقرون بتلك البلاد أملاً في الالتحاق بمعاهدها وجوامعها.

---

[35]- فضلاء (محمد الحسن)، المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، ج1، الجزائر:دار الأمة 1999، ص.ص(159-247).

[36]- للتوسع، يراجع:- البصائر، ع 240، س 06، الجزائر: 1953/09/11م، ص 5. - البصائر، ع 240، س 06، الجزائر: 1953/09/22م، ص 8.

[37]- هلال (عمار)، العلماء الجزائريون ، ص 60.

✓ ونظرًا لارتباط هذه الرحلات بعملية طلب العلم، هذا يدل على أن الجزائريين قد حرموا من طرف المستعمر من حقهم في طلب العلم، ولهذا نجدهم يشدون الرحال طلبًا للعلم ونشدانًا للمعرفة معتقدين أنهما من أنجع الأسباب وأمثلها في مساعدتهم على الخلاص من محنتهم، فكانوا لذلك يهاجرون إلى البلاد التونسية وغيرها لينهلوا من معين جامعاتها، ومراكز العلم بها ما يروون به ظمأهم للعلوم والمعارف[38].

وكانت تونس تأتي في المرتبة الأولى كمقصد لطلاب العلم من الجزائريين هؤلاء الذين كان كثير منهم قد انخرط في أسلاك التعليم بالزيتونة، وقد استقر ببعضهم المقام في تلك الديار فمكث بها وترقى نفر منهم إلى درجات عالية على سلّم المعرفة، وأما غالبيتهم فقد حملوا في صدورهم ما حصلوا عليه من الزاد العلمي، ثم ولوا وجوههم شطر أرض الوطن آيبين إلى حماه، عاملين على إقالته من عثرته وإنهاضه من كبوته، يقول عبد الله ركيبي[39]: « إنّ دافعنا إلى الهجرة هو دافع جيل كامل بل أجيالاً قبلنا تهدف إلى أن تتثقف ثقافة عربية إسلامية أصلية، خاصة وأن التعليم المتوسط والثانوي لم يكن بالعربية ولكنه كان بالفرنسية، ونحن أبناء الشعب من يعيش منا في الريف أو القرية لا فرصة له ليواصل تعليمه بعد الابتدائي فكانت (الزيتونة) ملجأ لمن حُرم من ثقافته وتراثه القومي، ولم يكن للجغرافية دخل في هذه الهجرة إلى تونس فهناك التقينا بأمثالنا من شتى أنحاء الوطن».

ومنذ أوائل القرن العشرين أصبح بعض الجزائريين يهاجرون من أجل العلم ثم العودة في غالب الأحيان لقد لاحظ محمد بيرم خلال السبعينات من القرن (19م) أن طلب العلم كان أحد أسباب الهجرة التي لا يعود أصحابها بعدها إلى الجزائر، أما المهاجرون في طلب العلم منذ القرن العشرين فكانوا غالبًا يغيبون مؤقتًا ثم يعودون بعلمهم[40]، والحقيقة التاريخية أن الوطن الجزائري كان ومازال يهتم بالعلم والعلماء، ولكن شهرة بعض المراكز كالزيتونة والقرويين والأزهر...قد تشرئب لها الأعناق لما لها من تقاليد مكانتها من استقطاب وجود العلماء فكانت منارات يُهتدى بها، ولا ضير في أن يكون الجزائريون وليس استثناء من غيرهم، فهناك الليبيون والمغاربة والتونسيون وغيرهم هاجروا إلى أماكن خارج بلدانهم لطلب العلم ويمكن أن نعدّد الأسباب كالآتي:

- **العامل الروحي**: وجود شيوخ طرق صوفية مشهورين في تونس، بل أن الزوايا الأم لأشهر الطرق الصوفية في الجنوب الشرقي للجزائر هي موجودة بتونس، وحركة المريدين من وإلى تونس شكّلت مع تكرارها وكثافتها دافعاً لحركة هجرة طلبة العلم باتجاه المراكز التعليمية الكبرى ومن بينها مركز التعليم في الزوايا والمدارس القرآنية.
- **العامل الاستعماري**: إن مقارنة بسيطة بين الوضع التعليمي في الجزائر ونظيره في تونس يتبيّن لنا التعليم العربي الإسلامي في هذه الأخيرة قبيل الحماية قد وصل بواسطة إصلاحات خير الدين إلى مستوى متطوّر نسبياً ذلك أن حياة فكرية تنشط داخل وخارج الزيتونة، وكذلك في كل المدن الكبرى بالبلاد؛ وفي هذا الصدد نبَّه "لوي ماشويل" والوكيل العام "بول كامبون" إلى أنه «من مصلحة الحماية معرفة نظام وهياكل التعليم العمومي قدوة

---

[38]- بن سمينة(محمد)، المرجع السابق، ص.ص(60-61).

[39]-سعيدوني(نصر الدين)،دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ أبو القاسم سعد الله،بيروت:دار الغرب الإسلامي 2000م ص 480.

[40]- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ص368. للتوسع يراجع: - إحياء التعليم المسجدي بمدينة قسنطينة "، البصائر: ع07، س II، 1947/09/09. و- بوعزيز (يحي)، " أوضاع التعليم في الجزائر خلال الثورة(1954-1962)"، مجلة الهداية، ع160 تونس: سنة 29، أفريل 2004م، ص 79.

بأفكار"جول فيري" في الجزائر»[41]، وطاعة لأوامر المقيم العام "كمبون" صاحب مقولة «يجب الترميم ولا التخريب، والتطوير لا التدمير، الإحاطة ولا التحكم مباشرة »، ويذكر مسؤول في إدارة التعليم العمومي في تقرير للمقيم العام «إنه من بين الأغلاط الكبرى التي نرتكبها في تونس إذا نحاول أن نوقف نشر التعليم أو الحد منه إذ يجب تجنب الوقوع في نفس الهفوات التي وقعت بها الإدارة في الجزائر في بداية الاحتلال بدون أي فائدة لا للتأثير الفرنسي ولا لنشر لغتنا».[42]

إن هذا الوضع التعليمي المزري هو الذي جعل فرحات عباس يصرخ قائلا: « لم يبق من حل سوى الرشاشات» وذلك في الوقت الذي بدأ فيه اختبار القوة في تونس والمغرب... وعلى هذا فقد ازدادت خطورة الوطنيين ووسّع العلماء شبكة مدارسهم ونفوذهم ودرّبوا جيلاً من الشباب متّجها بكليته إلى المشرق العربي[43].

كما أن تطبيق فرنسا لقانون التجنيد الإجباري ابتداء من سنة 1912م على المسلمين الجزائريين جعل الشباب الجزائري يفرون إلى تونس والمشرق العربي بحجّة طلب العلم وهذا خوفًا من استدعائهم لأداء الخدمة العسكرية، لهذا نلاحظ أن نِسب البعثات تكاد تكون الأعلى خلال فترات الحروب والمواجهات العسكرية سواءً مع خصومها أو في مستعمراتها (1912-1946) (1952-1955)م، خصوصا وأنّ فيه فتاوى شرعية تحرّم على المسلمين الجزائريين الانضمام إلى جيش الاستعمار الفرنسي كفتوى الشيخ عبد الحليم بن سماية عام 1912م وفتوى الشيخ عبد الحميد بن باديس عام 1939م[44].

- **العامل العلمي**: إن من أهم دوافع توجّه الطلبة الجزائريين إلى الخارج لأجل طلب العلم هو حب الاستزادة من العلم الشرعي والتبَّقُّر فيه وتضايقهم من سياسة القهر الاستعمارية المسلَّط عليهم في الجزائر مع وجود حرية نسبية في طلبه في تونس. وتدل إحصائيات 1944م أن عدد الأطفال الجزائريين الذين كانوا في سن الدراسة بلغ عددهم 150000 مسلم ولم تتح فرص التعليم الابتدائي إلا لـ 11000 شاب من مجموع العدد المذكور آنفا، أي بمعدل واحد من جملة أحد عشرة، وأتيحت له الفرصة ليزاول تعليمه في إحدى المدارس، ولو نظرنا إلى المستوى التعليم الثانوي أو الجامعي الذي يعتبر أساسي للإطارات المتوسطة الجزائرية لوجدنا أن نسبة الجزائريين الذين واصلوا تعليمهم ضئيلة، والحقائق المتوفرة على هذا الموضوع تؤكد أن هناك شابا جزائريًا واحدًا من جملة (175) تلميذًا قد استطاع أن يبلُغ مرحلة التعليم الثانوي في حين كانت نسبة التلاميذ الأوروبيين واحدًا من جملة ثلاثة.[45]

*__العامل الأمني__: وجود حياة هادئة ورخاء في العيش بتونس، مع وجود سلطة سياسية تحترم العلم وأهله وتعتني بهم[46]، فالفرنسيون لم يعطوا أي مكانة للعلماء وطلبة العلم رغم تعهدهم في وثيقة الاستسلام (1930/07/5)م واستبْقوْا فقط بعض المناصب الرمزية(الشكلية) كمنصب المفتي في المدن الرئيسية بصفة رجل دين يستعان به، وفي حالة

---

[41]- Machuel (L), l'Enseignement public en Tunisie (1883- 1906), Tunis: Imprimerie Rapid, 1906., P21.

[42] - العياشي (مختار)، الزيتونة والزيتونيون في تاريخ تونس المعاصر، تونس: مركز النشر الجامعي، 2003م ، ص32.

[43] – أجيرون (شارل روبير)، تاريخ الجزائر المعاصرة، تر: عيسى عصفور، بيروت: منشورات عويدات، 1982م ، ص 156.

[44] – عيساوي (أحمد)، الحياة العلمية والدعوية للشيخ سيدي محمد الطيب بن مبروك، الجزائر: مطبعة الفنون الخطية 2005م.، ص21، يراجع أيضا:سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية، ط4،ج2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م ص409.

[45] - Favrod (charles), la Révolution Algérienne, Paris: plon, 1959, P126.

[46] - عميراوي (أحميدة)، علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني، قسنطينة: دار البعث، 2002م ، ص26.

معارضته لنظام الاستعمار يُنفى، وهو ما حصل لكثير من علماء الجزائر ولعل أشهرهم المفتي شيخ الإسلام "محمود ابن العنابي" فتكون فرنسا بهذه السياسة قد اصطنعت إسلامًا خاصاً بها في الجزائر.

***العمل الدعائي:** لقد لعب هذا العامل دوراً حاسماً في تحديد وجهة طلاب العلم بعد أن حرَّض وحثّ الشباب الجزائري على ضرورة الهجرة من أجل الاستزادة في العلوم والتفقُّه في الدين فمن بلدة نفطة بالجريد التونسي حتى العاصمة التونسية، كانت المدارس والزوايا التونسية مشرّعة الأبواب لأفواج طلاب العلم على النحو الذي تفصّله مذكرات الأستاذ مالك بن نبي في قوله: « كان في تبسة فوران في الأفكار حقًا يحفظه ويرعاه ويصونه العلماء الذين أخذوا يعودون إلى تونس ولا يفوتنا أن نذكر أنهم كانوا على سنة تبسة سنّها شيخ من نفطة بالحدود الجزائرية التونسية التي كانت آنذاك المركز الثقافي الذي يؤمّه طلاب العلم الذين كانوا حفظوا القرآن عن ظهر قلب في زاوية سيدي ابن سعيد أو زاوية سيدي عبد الرحمان والذين لم يكونوا قادرين على القيام بدراساتهم العليا في الزيتونة بتونس...».[47]

إن وفرة مراكز العلم بتونس مع وجود جامع الزيتونة إضافة إلى دعاية العائدين منه بشهاداتهم أو في عطلهم من طلاب العلم، كل ذلك كان يزيد في حمى الرحلات العلمية باتجاه تونس، فهذا الشيخ محمد خير الدين يؤكد أولوية هذا الدور في عقده العزم على السفر إلى تونس: «وفي آخر العام الثاني من إقامتي بقسنطينة(1918م) قدِم إليها من تونس الشيخ الصالح الرياحي كان قد أنهى دراسته بجامع الزيتونة ونزل ضيفًا على الشيخ الطاهر بن رقطة فانتهزنا نحن تلاميذ المسجد مقامه بيننا وأخذنا نلتف حوله نسأله عن الحياة العلمية الزيتونية وعن الكتب التي تدرّس فيه والعلماء الذين يدرسون فزوّدنا —رحمه الله– بالكثير من المعلومات التي ملأت نفسي رغبة في الاغتراف من معين هذا المورد الفياض... وعقدتُ العزم منذ ذلك الوقت على السفر إلى تونس بعد أن أيقنت أن مقامي في قسنطينة لم يعد يكفي لإشباع رغبتي في طلب العلم، ولم أشأ أن أُشعر والدي بما عزمت عليه خوفًا من أن يمنعني من ذلك؛ إما للخوف علي من بُعد المسافة ومتاعب الاغتراب، أو لعدم تقديره تقديرًا صحيحًا أبعاد هذه الرحلة».[48]

*** عامل جمعية العلماء والشيخ عبد الحميد بن باديس:**

لقد كان من آثار ذلك التعليم المثمر الذي خاضته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن لجّت الرغبة بشباب الأمة في الاندفاع إلى العلماء والرحلة في طلبه حيث ما كان، فرحَّلَت المئات منهم إلى جامع الزيتونة، وقد أنساهم الحرص ما يجب من احتياطات فوقع الكثير منهم في المحذور، وجمعية العلماء هي التي أنشأت هذه الرغبة المتأجّجة في نفوس الشباب ولا تلومهم وتثبّطهم عن هذا الاندفاع[49] فلقد كان لحركة بن باديس التربوية التعليمية التي شُرع فيها منذ انتصابه للتدريس بقسنطينة سنة 1913م إثر تخرّجه من جامعة الزيتونة أثر عظيم في طلابه المتوافدين على رحاب الجامع الأخضر بقسنطينة من كل أرجاء الجزائر أثر في العقول والقلوب والسلوك لم تشهده البيئة الجزائرية من قبل مما جعل الإمام محمد البشير الإبراهيمي يقرر في مقدمه كتاب «سجل مؤتمر جمعية العلماء» المنعقد بنادي الترقي في العاصمة في سبتمبر 1935م: «إن من العوامل الأساسية في نشوء الحركة الإصلاحية في الجزائر الثورة التعليمية التي أحدثها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحيّة، والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه، والتعاليم الحقّة التي كان يبثّها في نفوسهم الطاهرة النقية، والإعداد البعيد المدى الذي يغذّي به أرواحهم الوثّابة الفتية... فما

---

[47] - مذكرات شاهد على القرن، ج1، ص 134.

[48] – خير الدين (محمد)، مذكرات، ج1، الجزائر: مؤسسة الضحى، 2000م ، ص 64.

[49] - الإبراهيمي، "إحياء التعليم المسجدي"، البصائر، ع7، ص01.

كادت تنقضي مدة حتى كان الفوج الأول من تلاميذ ابن باديس مستكمل الأدوات... ثم زحفت من أولئك التلاميذ في ذلك العهد أيضًا كتيبة جرّارة سلاحها الفكرة الحيّة الصحيحة إلى جامع الزيتونة لتُكمل معلوماتها ولتبني على تلك الفكرة الحيّة وعلى ذلك الأساس العلمي الصحيح بناءً علميًا محكَمًا، ورجعت تلك الطائفة إلى الجزائر، فكان من مجموعها وممَّن تخرَّج بعدها من تلاميذ الأستاذ ومن تلاميذ جامع الزيتونة جنود الإصلاح اليوم وقادتُه وألويتُه المرفرفة وأسلحته النافذة»[50].

وفي ذات السياق يقول أبو القاسم سعد الله: «يذكر أهل قمار أن زيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس لهم في الثلاثينات من القرن العشرين قد أذْكت روح النهضة في القرية، ونتيجة لذلك ولانتشار الحركة السياسية الوطنية ولتأثير الحرب العالمية الثانية، سافر عدد من شبان قمار إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة، وكان هؤلاء الشبان يعودون في صيف كل عام فيتصلون بشبان جدد وينشرون بينهم أفكار جديدة، فكان عدد الذاهبين إلى تونس يزداد في خريف كل سنة إلى أن كنت من بين هؤلاء المجنّدين عام 1947م»[51].

ويمكن القول بأن لهذه الرحلات انطلاقاً من الدوافع المختلفة هدفاً موحدًا يتمثل في الاتصال بالعلماء والمثقفين التونسيين وتبادل وجهات النظر معهم وتجديد الصلة بهم... إلا أن هناك عوامل ذاتية (شخصية) خاصة بكل طالب بحيث أنها اختلفت من رحالة إلى آخر.

فلقد تحدّث أبو القاسم سعد الله في كتابه (شاعر الجزائر) عن دوافع ارتحال محمد العيد آل الخليفة إلى تونس قائلا: «...توجَّه محمد العيد إلى تونس لمواصلة دراسته في جامعها الأعظم وكان لذلك أسبابه... فشيخه الزيتوني ابن إبراهيم الذي ملأ حياته العلمية والذي كان يشبع نهمه إلى المعرفة قد مات... إضافة إلى أن الجرائد التونسية التي تصل إلى الجزائر محملةً بأخبار نهضتها الوطنية والأدبية كان لها أثرها في تحفيزه إلى الهجرة والترحال».[52]

كما أن الطالب المولود الحافظي (1880 – 1948)م وبعد رحلة شاقة وسفر بلا زاد ولا رفيق قد اجتاز الحدود الشرقية نحو تونس العاصمة مشيًا على القدمين يغمره الخوف والجوع لسبب آخر هو وعيد أبيه له بقتله فأبوه الصديق بن العربي كان قد تورَّط في قتل أحد أقاربه وتمّ سجنه بقسنطينة، مما اضطرَّ ابنه المولود وكان صغيرًا في سنه أن يتقدم إلى بعض المحامين ليتولى الدفاع عن أبيه أمام الجهات القضائية، ونظرا للظروف القاسية التي خلَّفها سجن والده، اضطر ابنه المولود إلى بيع قطعة أرض لتسديد نفقات التنقل من بني حافظ (دائرة بني ورتيلان) إلى قسنطينة وكذا أتعاب المحامي، فكان الجزاء الذي واجه به الأب هذا الفعل من قبل ابنه أن توعَّده بالقتل وباليمين المغلَّظة، والمولود لا يخفى عليه بأن أباه إذا توعَّد أنجز وإذا هدّد نفّذ، وأدرك بأن نهاية حياته ليست بعيدة ولا تتجاوز فترة وجود أبيه في السجن...ومع خروج والده غادر ناحية بلدته باتجاه تونس[53].

---

[50] – الشهاب، ج11، مج 10، الجزائر: أكتوبر 1934م. للتوسع راجع: – مرحوم (علي)، " لمحات من حياة ابن باديس"، الأصالة، ع 24، الجزائر، ص.ص(106-107). – شيبان(عبد الرحمان)، مقدمة مجلة الشهاب، بيروت : دار الغرب الإسلامي2000م، ص.ص(131-132).

[51] – سعد الله (أبو القاسم)، منطلقات فكرية، ص44.

[52] – سعد الله (أبو القاسم)، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2005م ص 23.

[53] – آيت علجت (محمد الصالح)، الشيخ المولود الحافظي، الجزائر: منشورات دار الكتاب، 1998م، ص 29.

كما روى لي الشيخ محمد علي كرام السوفي[54] أن السبب المباشر لهجرته إلى الزيتونة هو أن أهله قد اضطروه وهو صغير على الزواج من ابنة عمه التي سُمِّيَت له حينما كانا صغارًا، وفرارًا من هذه الوضعية أضطر محمد علي كرام إلى الهروب نحو تونس بحجة مواصلة التعلم.

كذلك فإن حزب الشعب الجزائري قد جعل قضية نشر التعليم العربي من جملة اهتماماته واتخذ منها سلاحًا لدفع الحركة الوطنية إلى الإمام وإثارة اهتمام المواطنين بمقوّمات الشخصية الجزائرية، ووجوب المحافظة عليها وليس غريبًا أن يهتم حزب الشعب بنشر التعليم العربي فهو الوارث الشرعي لحركة نجم إفريقيا هذه الأخيرة التي طالبت منذ عام 1933م، في برنامجها السياسي بوجوب «فرض التعليم الإجباري باللغة العربية وفسح المجال للطلاب لدخول المدارس على جميع المستويات وجعل اللغة العربية لغة رسمية في الدوائر الحكومية»، ومن هذا سعى حزب الشعب إلى المساهمة وإن كانت متواضعة في نشر التعليم العربي بين كوادره وأسّس عددا لا بأس به من المدارس الابتدائية في العاصمة وبعض المدن الأخرى كما أنه أرسل عددًا من الطلاب على نفقته الخاصة للدراسة في جامع الزيتونة في تونس[55].

ولا يعزب عن أحد أن دور جامع الزيتونة في بثّ العقيدة الإسلامية وعلوم الشريعة المحمدية والآداب العربية، كان دورًا جليلاً، وأن للزيتونة إسهامًا في إشعاع الحضارة الإسلامية تجاوز حدود البلاد التونسية، وقد يدرك المتأمل في قائمة النخبة الجزائرية المثقفة في غضون القرن العشرين عظمة الإسهام الزيتوني في تطور الجزائر كما يلاحظ قدرة التعليم الزيتوني رغم المشاكل التي كان يتخبَّط فيها على تكوين نخبة متضلعة لا في العلوم الدينية فحسب بل وفي العلوم الأدبية واللغوية والإنسانية، وقد كانت النخبة الزيتونية تواكب العصر، ويشارك أفرادها في كل النضالات الاجتماعية والسياسية.

فجامع الزيتونة يُعد منارة أضاءت بنورها سماء بلاد المغرب العربي، ويشكل في أهميته التربوية المرتبة الثانية بعد جامع الأزهر بمصر[56]، وقد ارتحل إليه المسلمون من الأقطار المغاربية والأفريقية لينهلوا من منابع فيضه شتى العلوم وأصول الدين[57]، وكانت صورة الجامع الأعظم في نفوسهم رائعة وعظيمة لإدراكهم أنه: ما ضاق صدر مهموم ودخله إلا وإنفرج وانفتحت له بلطيف عنايته أبواب الفرج»[58] وعلاقة الجزائريين بجامع الزيتونة تعود إلى فترات تاريخية موغلة في القدم، حيث احتضن الجامع الأعظم العديد من الطلبة الجزائريين الذين شغفوا بطلب العلم ولم يقتصر وجود الطلبة بالجامع الأعظم فقط ولكن بعض الطلبة كانوا منتسبين لفروعه في بعض المدن مثل: قابس وصفاقس والمنستير، وفي هذا السياق يقول محمد الطاهر فضلاء:«...الذي أعرفه ويعرفه الناس جميعًا في الجزائر هو تأثير جامع الزيتونة في تلك النواحي بالخصوص، وهو يتمثل في المصلحين عموما وفي مثقفي اللغة العربية والمتخرجين من ذلك المعهد الإسلامي العظيم الذي جنى الاستقلال والحزب الدستوري فعطلاه عن تأدية رسالته المقدسة».[59]

---

[54] –مقابلة مع الأستاذ محمد علي كرام،مسجد بلال بن رباح– بلوغين– الجزائر، الأربعاء 2006/04/05م (19:00-17:00).

[55] – تركي (رابح)، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ط2، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1981م.، ص ص (244 -245).

[56] – الزيدي (علي)، تاريخ النظام التربوي للشعبة العصرية الزيتونية، تونس: بلا نشر، 1986م.، ص09.

[57] –المعموري(الطاهر)،جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي،تونس: الدار العربية للكتاب، 1980م، ص03.

[58] – السراج(محمد)، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، مخطوط 01 ، تونس: المكتبة الوطنية ، ب.ت، ص567.

[59] – فضلاء(محمد الطاهر) ، التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح، الجزائر: دار البعث 1982م، ص 329. للتوسع يراجع: – – الزيتونية، مج 6، ج2+3، تونس: 1945/8/7، ص 435

وفي السياق ذاته يقول الطالب الزيتوني يحي بوعزيز:«إن ما قدّمته الجامعة الزيتونية وعلماؤها من أفضال للجزائر لا يمكن حصرها أو تقديرها بثمن، والجزائر مدينة لها ولا تستطيع أن ترد ولو واحدًا في المليار من الجميل لأن الزيتونة هي التي كوّنت الأجيال المثقفة الجزائرية التي حافظت على عروبتها وإسلامها، ومنهم أنا الذي درست في الزيتونة سبع سنوات كاملة (1949 -1956)م، ابتداءً من صاحب الطابع إلى الحفصي فاليوسفي فحمودة باشا فالزيتونة، وحصلت على الشهادة الأهلية بامتياز وجائزة على مستوى كل المملكة التونسية عام 1953م...».[60]

ونخلص إلى القول أن للبعثات التعليمية والرحلات دورها المميّز في تغذية حركة النهضة في الجزائر بجميع جوانبها والإسهام في توسيع دائرة النشاط الثقافي والأدبي بها وبخاصة منها جامع الزيتونة العامر، فقد كان من أهم العوامل التي سارعت في نقل أفكار أعلام الحركة الإصلاحية المشرقية إلى طلبته من الجزائريين وذلك عن طريق المصلحين من شيوخه.

4. إحصائيات وأرقام لتطور الوجود الطلابي بتونس:

ينبغي أن نوضح قبلاً أن الإحصاءات الرسمية لم تخصص في تقويمها أي مكان لطلبة الجامع الأعظم الجزائريين باعتبارهم منضوين داخل الطاقم الطلابي الزيتوني من دون تحديد الجنسية والهوية، وينسحب ذلك على ما جردناه بشكل متواضع من الصناديق المحفوظة في الأرشيف الوطني التونسي أو البكارات المتوفرة على مستوى المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية بتونس، وبالتالي من الصعب حصر عدد الطلبة الجزائريين المنحدرين جغرافياً من منطقة الجنوب الشرقي؛ بجامع الزيتونة بصفة دقيقة وبنفس الدقة لكل الأجيال وذلك لغياب الوثائق الرسمية خلال الفترة (مطلع القرن العشرين إلى نهاية الحرب العالمية الأولى) من جهة؛ واحتجاب الأرقام والوثائق الرسمية خلال فترة الحرب العالمية الثانية من جهة أخرى، لذلك استندنا في ضبط قائمة الطلبة على امتداد كامل فترة البحث إلى: مصادر متنوعة كالنشرات الطالبية، الدوريات المصدرية، الوثائق الأرشيفية، وشهادة الطلاب القدامى...ولقد أفضت كل هذه الجهود إلى تحديد 642 طالبًا موزعين على كامل فترة الدراسة؛ غير أن هذا الرقم يتضمن الطلبة الذين واصلوا دراستهم بالجامعة، وكذا الطلبة الذين شكَّلت لهم جامعة الزيتونة مرحلة عابرة ينتقل منها إلى جامعات الشرق، كما يضم أيضًا نوعًا ثالثًا من الطلبة وهم أولائك الذين سجَّلوا بالجامع من أجل تسوية وضعيتهم القانونية بتونس أو بقصد الفرار من أداء الخدمة العسكرية، زيادة على ذلك هناك عدد معتبر من طلية الجنوب الشرقي الذين سجَّلوا بمدارس ومعاهد تونس بهويات مزورة، أو انخرطوا بدون دفتر بهدف التخفّي والتمويه عن السلطات الأمنية..وإذا أضفنا إلى هذه القائمة الطلبة ذوي الأصل السوفي والبسكري والتبسي...والمقيمين إقامة دائمة بتونس (نتيجة هجرات سابقة) وهو ما تعذر علينا إنجازه كون هذا النوع من الطلبة غير محدد الهوية والوثائق الرسمية أو التقارير الصحفية التي تحدد هويته عن طريق مكان الإقامة ولا يهمها البحث في الأصول الأولى، وتجدر الإشارة أيضًا أن عدد الطلبة يتغير باستمرار بحسب الظروف السياسية والأمنية السائدة في كلا القطرين، والملاحظ أنه قد تضاعف بعد الثلاثينات ليصل إلى الأوج بعد الحرب العلمية الثانية، وإذا كنا لا نعرف بالضبط عدد الطلبة الذين يفدون إلى تونس قبل الحرب العالمية الثانية فإن عددهم قد لا يتجاوز بضع عشرات في العام الواحد بما فيهم أولئك الذين كانوا يتابعون دراساتهم أحرارًا أي غير مسجلين رسميًا، وهو ما كان يسمى بـ "الدراسة بدون دفتر"[61]، كما أن عملية إحصاء طلبة الجنوب الشرقي المنضوين داخل الجامع انطلاقًا من دفاتر

---

[60] -بوعزيز (يحي)،" أفضال الزيتونة على المسيرة الثقافية والعلمية بالجزائر"، مجلة الهداية، ع 152، تونس: 2002م.

[61]- نجار(عمار)، مصالي الحاج (الزعيم المفترى عليه)، الجزائر: دار الحكمة، 2000م، ص 216.

رسمية أو قوائم الناجحين أو شهادات النجاح غير كافٍ؛ ذلك أن هذه الوثائق لا تشير إلى جنسية الطالب ولا إلى هويته مما يُصعّب عملية معرفة أوصول الناجحين وتحديد هوياتهم[62].

ومهما يكن من أمر فلا نستطيع بأي حال من الأحوال أن نعتبر أن الرقم المقدم من طرفنا (642) رقمًا مسلمًا به كونه يتماشى وتعداد المهاجرين الجزائريين أصيلي الجنوب الشرقي في تونس الذين يعدون بعشرات الآلف، وعلى افتراض أن الإحصاءات الإدارية المقدمة صحيحة إلى حد ما فهي بصورة أخرى لا تعكس إلا الطلبة المسجلين (القانونيين) إذن كم هو عدد الجزائريين «أصيلي الجنوب الشرقي» ولأسباب متعددة امتنعوا عن تسجيل أنفسهم(بدون دفتر)؟

لقد كانت عقود الثلاثينات والأربعينات والخمسينات من القرن الفارط أكثر زخمًا بالطلبة والتلاميذ الجزائريين عموماً أو «أصيلي الجنوب الشرقي» في جامع الزيتونة وبقية المعاهد الأخرى ويعدون بالآلاف فرارًا من سياسة التجهيل التي تطبقها الإدارة الاستعمارية وإفشالا لها في نفس الوقت، فتعلّموا وتكوّنوا، وتحصّنوا بالعلوم والمعارف التي تلقوها من علماء الزيتونة، وشاركوا بعد ذلك في تحرير بلادهم الجزائر من الاستعمار الفرنسي وفي بناء المدرسة الجزائرية الحديثة والوليدة على أسس وطنية متينة عربية إسلامية[63]

ففي حين كان عدد الطلبة الجزائريين والزيتونيين لا يتجاوز اعدد أصابع اليد مع فرض الحماية 1881م نلاحظ أن أعدادهم قد تضاعفت على الأقل مرتين قبيل الحرب العالمية الأولى ثم انخفض عددهم بسبب ظروف الحرب ورجوع العديد من البعثات الطلابية التي كانت تنوي الالتحاق بتونس قبيل الحرب، غير أنها عاودت محاولتها بعد انجلاء غمّة الحرب (عام1917م) ثم تكررت خلال سنتي (1918و1919)م، ومع عودة البعثات الجزائرية إلى الجامع الأعظم بكل مساراتها (الشمال- الوسط-الجنوب الصحراوي) خلال فترة العشرينات من القرن الفارط بسبب الانفتاح الأمني والسياسي والتربوي في كلا القطرين، مما يبدو سببًا كافيًا لتزايد طلبة الجنوب الشرقي الجزائري بتونس حيث ارتفع عددهم بشكل مطرد اعتبارًا من السنة الدراسية (1930–1933)م إلى 65 طالباً وهذا لم يحدث من قبل أبدًا ليبلغ قبيل الحرب العالمية الثانية إلى ما بين(300-350) طالب مع تفاوت في السنوات إلا أنه اعتبارًا من السنة الدراسية (1946- 1947)م شهد الجامع الأعظم إقبالاً منقطع النظير من قبل الشباب السوفي خصوصاً لكن هذه المرة في إطار بعثات منظمة ويؤطرها واحد من قدماء خريجي الزيتونة حيث ازداد عددهم إلى نحو 100 طالب تقريباً، ثم أخذت البعثات الطلابية تتزايد من الجنوب الشرقي الجزائري باتجاه الجامع الأعظم بشكل ميّزته التنافسية بين القرى والمداشر والعائلات في من يضم من أبنائه أكبر عدد من الطلبة خريجي الزيتونة[64].

كما أن تزايد تعداد المدارس الحرة لجمعية العلماء المسلمين وحزب الشعب والنهضة الميزابية (بتبسة خصوصاً) خلق دافعًا قويًا لإرسال المزيد من الشباب للالتحاق بالجامع بقصد سدّ النقص الحادث في تلك المدارس والمعاهد، ويزيد في ذلك إقناعًا، القوانين الفرنسية الجائرة التي تمنع على الجزائريين خصوصًا منهم الغير الموالين لتوجهاتها الاستعمارية بمواصلة الدراسة في الثانويات والجامعات الفرنسية، كما أن برامج تعليم الفرنسية في الجزائر زادت من

---

[62]- راجع مثلا قائمة الناجحين في شهادة التطويع سنة 1911م والذين ترأس قائمتها الطالب عبد الحميد بن باديس، المشير: تونس : 1911/08/06م.

[63]- بو عزيز (يحي)، " أفضال جامع الزيتونة"، الهداية، ع 158، ص75.

[64]- مقابلة شخصية مع الأستاذ – محمد حمرات القليعي، بمسكنه بحي 35 مسكن- أدرار (2005/12/02).

نكوص أولياء التلاميذ الجزائريين على إرسال أبنائهم من دون تحصينهم بالتربية الدينية الصحيحة والتي لا يمكن تحقيقها إلا بالالتحاق بالزيتونة والمعاهد التونسية التي تمثّل مرجعًا دينيًا كبيرًا لدى عامة الشعب الجزائري.

ثم أخذ عدد الطلبة الجزائريين «أصيلي الجنوب الشرقي» يرتفع أكثر فأكثر خصوصًا مع استقرار الوضع السياسي والاجتماعي في تونس حيث بلغ عددهم ولأول مرة في تاريخ البعثات الطلابية انطلاقاً من (وادي سوف وتبسة وبسكرة) إلى الجامع الأعظم (117طالب) خلال السنة الدراسية (1954-1956)م من دون حساب الطلبة الموجودين بالخصوص في الفروع الزيتونية القريبة من الحدود التونسية الجزائرية مثل فرعي الكاف وتوزر الذين لا يُعرف عددهم بالضبط بسبب انعدام الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع.

واستنادا للأرقام التي وُفقنا في جمعها من مصادر مختلفة أمكن لنا إنجاز الجدول التالي حول تطور عدد الطلبة الجزائريين«أصيلي الجنوب الشرقي» بالجامع من سنة 1900م إلى غاية 1956م.

الفترة الزمنية	العدد الإجمالي للطلبة
(1900 -1904)م	**00**
(1905 -1909)م	**02**
(1910 -1913)م	**12**
(1915 – 1918)م	**09**
(1919 – 1923)م	**12**
(1924 -1925)	**42**
(1926 – 1929)	**51**
(1930 -1933)م	**65**
(1934 – 1939)م	**82**
(1940 – 1945)م	**46**
(1946 – 1950)م	**92**
(1951 – 1954)م	**112**
(1954 -1956)م	**117**
المجمــوع	**642**

وبالنظر إلى هذه الإحصائيات النسبية فإنها لا تشتمل على: الطلبة الجزائريين الذين واصلوا دراستهم فيما بعد في باقي المؤسسات التعليمية كالخلدونية والصادقية وحتى المعاهد الرسمية. والطلاب الجزائريون المستقرون أصلاً بتونس أو في المدن التونسية (جزائري بالأصل وتونسي بوثائق الهوية). والطلبة الجزائريون الغير مسجلين رسميًا في دفاتر الطلاب (بدون

دفتر). والطلاب الجزائريون الغير حاصلين على أيٍ من شهادات الجامع. كما ينبغي أن نسجل أننا استثنينا الطلاب الذين انضموا إلى الجامع متأخرين (ما بين الفترات) خصوصًا منهم الطلبة الجزائريين اللاجئين مع أهاليهم على الحدود إبان الثورة الجزائرية. ويمكن أن نستنتج من هذه الأرقام أن تطور عدد الطلبة الجزائريين قد تم على مراحل وبنسق جد متفاوت بحسب الظروف السياسية والأمنية والمادية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وبخصوص مرحلة الحرب العالمية الثانية «1940 -1945»م فقد شهد عدد الطلبة خلالها تراجعاً واضحاً ويعود ذلك كما هو معروف إلى الأوضاع السياسية والعسكرية التي شهدتها المنطقة منذ مطلع شهر جوان 1940م، إذ أُغلقت جلّ المعاهد التونسية أبوابها، ورغم هذا الوضع الاستثنائي فقد بقي بعض الطلبة بالعاصمة عالقين وتعذّرت عليهم سبل العودة إلى الجزائر؛ فيما نجح فيما يزيد عن 200 طالب بالرجوع إلى الوطن في انتظار نهاية الحرب.

ورد في وثيقة هامة عن خزينة الوثائق التونسية (الأرشيف الوطني التونسي)[65] قائمة من أربعة وعشرون صفحة تضم أسماء الطلبة الزيتونيين الذين لم يتمكنوا من مغادرة العاصمة التونسية إثر حوادث الحرب الكبرى..أين علق عدد من الطلبة الجزائريين في جامع الزيتونة وانقطعت علاقتهم بأهاليهم، مما فرض عليهم حصاراً مالياً ومعنوياً جعل حيا تهم بتونس جحيماً، وهو الأمر الذي اضطرهم إلى الاستنجاد بمشيخة الجامع وبالحكومة التونسية ممثلة في الوزارة الكبرى، واستنجدوا حتى بحكومة فيشي قصد انتشالهم من الحالة المزرية التي أضحوا يحيونها، خصوصاً وأن حظوظهم في الرجوع إلى أقطارهم كانت معدومة في ظل ظروف الحرب الصعبة والقصف المتواصل بين المحور والحلفاء.

فقد تضمّنت العلبة (25) السابقة الذكر، عدة ملفات تضمّنت أسماء هؤلاء الطلبة بأرقام دفاترهم بالجامع وكذا السنة التي يدرسون بها إضافة إلى العمالة والمشيخة التي ينتمون إليها.

كما تضمّنت جريدة بأسماء التلامذة (كذا) الذين يرغبون في إحالتهم على الخيرية لتباشر تموينهم وعددهم(111) طالب جزائري بمختلف مستوياتهم وطرائقهم خلال السنة الدراسية (1942-1943) أغلبهم من القطاع القسنطيني (99طالب) والقطاع الجزائري (10)، القطاع الوهراني(02)، ومنهم (72) طالب في المرحلة الابتدائية، و(32) طالب في المستوى الثانوي و(07) طلاب في التعليم العالي، خمسة منهم في الشرعي واثنان في الأدبي، كما تضمّنت نفس العلبة عدة وثائق تضمّنت هي الأخرى قوائم اسمية لطلبة جزائريين طلبوا إعانة إضافية من الوزارة المعنية خلال سنتي (1942م)[66] و(1943)[67]، وهذا الملف الأخير تضمّن جريدة بأسماء التلامذة الذين يرغبون في الرجوع إلى بلدانهم وعددهم (11) طالب منهم (9) طلاب من الوادي. وجاء في الوثيقة رقم (75) المؤرخة في 1944/02/29، موجّهة من طرف وزارة الأوقاف إلى جمعية الأوقاف[68] بأن الوزارة قد أرسلت حوالة بـ(135000) فرنك فرنسي باسم الجمعية تسديداً لدينها، جرّاء ما أنفقته الجمعية على الطلبة الجزائريين خلال الحرب العالمية الثانية «...وبعد..فضلاً على ما طلبته جمعية الأوقاف من استرجاع الفرنكات (135000) التي كانت تولّت تسبقتها مدة الحوادث الحربية لتلامذة الجامع الأعظم الذين انقطعت عنهم المواصلات مع أهلهم (كذا) في ذلك العهد».

---

[65]-A. N. T, Série D, C 35, Dossier 28.

– تقرير يضم قائمة الطلبة الألف الذين لم يتمكنوا من مغادرة تونس على إثر الحرب (نوفمبر 1942)م.

[66] - - A.N.T, Série D, C35, Dossier28, doc.n °(25-26-27-28-29-30).

[67]- A.N.T, Série D , C35, Dossier28, doc n°(52-53-54-55)

[68]- A.N.T, Série D, C35, Dossier28, doc.n°75

– مكتوب وزيري من الجناب وزير الأوقاف في 1944/02/29م بخصوص إعانة مالية تلامذة الجامع الأعظم.

ورداً على مراسلة الوزارة بعدد(143) السابقة الذكر، راسلت جمعية الأوقاف الوزارة المعنية بمراسلة عددها 3330 بتاريخ (1944/03/27)م[69]، وتضمّنت جريدة بالمبالغ التي وقع إنفاقها على التلامذة الجزائريين بالجامع الأعظم الذين كانوا بالحاضرة وانقطعت عنهم المواصلات مع أهاليهم مدة الحوادث الحربية «..والمنهي إلى الجناب أنه وقع تحرير جريدة في أسماء التلامذة (كذا) المذكورين ومقدار المبالغ التي سُلّمت إليهم...» غير أن هذه الوثيقة لم تردف بأي قائمة كما ذكرت في نص المراسلة، رغم تفتيشنا عنها في كامل السلسلة (D).

ومع تطوّر الحوادث الحربية بتونس ازداد تدهور الأوضاع المادية والمعنوية للطلبة الجزائريين العالقين بتونس قام عدد من هؤلاء الطلاب وعلى رأسهم جاء ذكر كل من: (رابح بونار، محمد حميدة بن خضر، الصغير بن محمد بن الصديق، محمد رضا، بن علي زين العابدين، محمد الخوني، الأزهر بن بلقاسم القربوجي، أحمد بن سعد بن الطاهر...)، بمراسلة[70] الوزير الأكبر بالبلاد التونسية محمد الشنيق.

4. النضال الوطني لطلبة الجنوب الشرقي الجزائري في الحياة التونسية«الطلبة السوفيين أنموذجاً»

سنحاول في إطار هذا القسم حصر اهتمامنا بقدر المستطاع في الحركة الطلابية من خلال نشاط الطلبة السوفيين داخل مختلف التنظيمات الثقافية والعلمية التي كانوا موجودين بها جنباً إلى جنب مع باقي التلامذة والطلاب بتونس، وكذلك حول مساهماتهم ونضالاتهم الوطنية في الحياة التونسية من خلال تأسيس وتنشيط الأحزاب السياسية أو النقابية، مما كان له الأثر الطيب في زيادة لحمة التواصل بين ساكنة الجنوب الشرقي الجزائري ومختلف الحواضر التونسية، أعلم أن كل ذلك قد يتجاوز الإطار المحدد لهذا العمل الذي لا يحتمل الإطناب في الحديث عن النشاط الاجتماعي والثقافي والاقتصادي داخل النضال الطلابي الجزائري، لأن هذه التقارير تتحدث بصفة العموم والشمول على أساس طبيعة العمل الطلابي وطبيعة الهدف المتوخى منه (خدمة مصالح الطلبة)، وقلّما تُلمّح إلى أصول هؤلاء المناضلين الناشطين في الحياة الجمعوية التونسية.

إن الطلبة الجزائريون عموماً وأصيلي وادي سوف خصوصاً اضطلعوا كما هو معلوم سواءً كان ذلك ضمن تنظيماتهم أو خارجها بدور ملحوظ في مقاومة الكيان الاستعماري وساهموا خاصة منذ أواخر الثلاثينات من القرن الفارط في مختلف أطوار العمل التحرري بجميع أشكاله وعلى شتى مستوياته، كما جسّد هؤلاء الطلبة كذلك وإلى حد كبير المقاومة الثقافية للاستعمار وشكّلوا إحدى الدعائم والركائز الأساسية لهذه المقاومة التي حاولوا من خلالها الدفاع عن ذاتيتهم وأصولهم الإسلامية، والتصدي إلى كل المشاريع والمحاولات الاستعمارية الرامية إلى تقويض المقوّمات والثوابت الحضارية للبلاد وتطويق وتهميش ثقافتها العربية وإضعاف الشخصية الجزائرية لتأهيلها في البوتقة الفرنسية.

واعتباراً لتكوينهم الإيديولوجي والسياسي وتطلعاتهم السياسية والوطنية نشأت بين الطلبة السوفيين وعديد الأحزاب والجمعيات والمنظمات الناشطة بتونس علاقات وطيدة طيلة فترة دراستهم، وقد تراوحت هذه العلاقات بين الطابع الخاص والروابط الشخصية، لتشمل العمل الثقافي والأدبي والتنسيق المتبادل بين الطرفين، لاسيما منذ نهاية الحرب العالمية الأولى بنمو الحركة الثقافية والإبداعية التونسية وتطور عدد الطلبة «السوافة» الدارسين بتونس.

---

[69]- A. N.T, Série D, C35, Dossier 28, doc n° 74.
[70]- A.N.T, Série D, C35, Dossier 28, doc n° 104.

ومنذ فترة التحاقهم بالجامع الأعظم نسج الطلبة السوفويون علاقات بالجمعيات والمنظمات الوطنية الموجودة على الساحة التونسية، فانخرطوا فيها ونشطوا داخلها، فكانت للعديد منهم محطات نضالية بارزة، واعتباراً لكل ما تقدم كان من الطبيعي أن يحافظ قسم هام من هؤلاء الطلبة على هذه العلاقة أو البعض منها إثر رجوعهم إلى مناطقهم بالجزائر، نظراً لتعدد الجمعيات والمنظمات التي ربطت النخبة الجزائرية معها علاقات من قريب أو بعيد فإننا سنركز على تلك التي استقطبت غالبية الطلبة والتي ارتبطت بدرجة أولى بالعمل الثقافي المتصل بالقضية الوطنية أو بالمسائل المادية والأدبية للطلبة.

وبالرغم من مشاغل الدراسة والصعوبات المادية التي كان يواجهها جل الطلبة "السوافة" خلال فترة دراستهم بتونس، فقد حرص البعض منهم على إبقاء قنوات الاتصال والترابط مع هذا المحيط والقيام ببعض النشاطات خلال العطل المدرسية، فقد حافظ جل الطلبة الجزائريون على العلاقة التي كانت تربطهم بالجمعيات والنوادي الثقافية التونسية، حيث كانت مقرات هذه الجمعيات منابر للحوار حول بعض المؤلفات الأدبية والفكرية الصادرة حديثاً بتونس أو بالعالم العربي أو حول المناهج والاتجاهات الفكرية والعلمية الحديثة.

فبالإضافة إلى نشاطه الصحفي المميّز حول عديد القضايا الاجتماعية، تعرّض عبد الرحمان اليعلاوي«ذي الأصول السوفية» إلى الصراعات التي كانت تدور في أوساط المثقفين من أجل السيطرة على مجلس إدارة جمعية الخلدونية، وإلى رغبة البعض في إحياء بعض الجمعيات الأخرى إذْ يذكر أن بعض المثقفين اجتمعوا يوم 1924/10/09م بنادي قدماء الصادقية لإحياء جمعية الجامعة الزيتونية، ولتجسيد ذلك انتخبوا لجنة وقتية ضمّت كل من أحمد توفيق المدني وعبد الرحمان اليعلاوي وزين العابدين السنوسي وعثمان الكعاك..

بالإضافة إلى ذلك فقد مثّلت المنازل الخاصة مجالاً للقاءات المثقفين، ويذكر أنه استقبل في أكثر من مناسبة بغرفته الكائنة بنهج الصباغين بالعاصمة العديد من هؤلاء مثل الشاذلي خزندار والحبيب جاوحده القيرواني.... وجاء في مقال نشره محمد الصالح المهيدي[71] أنه وقصد التحضير لزيارة الشيخ بن باديس إلى العاصمة التونسية يوم 11 شوال 1355هـ، عزم مجموعة من الشباب الجزائري – أغلبهم ذوي الأصل السوفي- المقيم بتونس على إنشاء جمعية جزائرية بحتة يسمونها [جمعية الإخاء الجزائري] تنال الشرف في أن يتبناها الشيخ ابن باديس، وبالفعل فقد قامت هذه الجمعية بالتنسيق مع هيئة المجلة الزيتونية بإقامة حفل استقبال كبير له بالخلدونية أعقبته مأدبة متواضعة على شرفه.

وفي الوقت الذي عزم فيه الطلبة الجزائريون بتونس على تجديد منظمتهم الطلابية (جمعية الطلبة الجزائريين بتاريخ 11/06/ 1936م)[72]، وإعطائها نفَساً جديداً يتلاءم مع التطورات الخطيرة التي شهدتها الساحة السياسية في الجزائر طُرحت فكرة توحيد الشبيبة المغربية بكل معانيها السياسية والاجتماعية والثقافية، وقد طرح هذه الفكرة محمد العيد الجباري (1911- 1942) أصيل الحساسنة (عين عبيد) والذي درس بالزيتونة خلال الفترة (1924- 1929)م وحاز منها على شهادة التطويع، وقد تحمَّس لها بقوة حتى نقلها من الميدان النظري البحت إلى ميدان الواقع الملموس، بحيث تمكّن في ديسمبر 1936م من إنشاء منظمة طلابية مغربية، جمعت شمل طلاب أقطار المغرب الثلاث، وقد

[71] – الأفكار، ع 03، تونس: 01/01/ 1937م.

[72] – أنظر: البصائر، 1936/11/20م.

عرفت المنظمة في وقتها تحت اسم "شبيبة شمال إفريقيا الموحدة"، وبعد مضي أقل من شهر على تأسيس هذه الجمعية الطلابية المغاربية وصل عدد المنخرطين فيها إلى ما يناهز 100 منخرط من بينهم 31 منخرطاً من أصل سوفي«حسب مصادر متطابقة»[73]، وكان هؤلاء يعقدون اجتماعاتهم دورياً في مقر الجمعية بـ 05 شارع الوادي- تونس[74].

وبعد إطلاق سراحه في 15 جانفي 1938م، عاد محمد العيد الجباري إلى تونس عازماً كل العزم على بذل كل ما في وسعه لجعل "فكرة وحدة المغرب العربي" على رأس انشغالاته واهتماماته، وقد بلغ عدد المنخرطين في الجمعية التي أسسها لبلوغ الهدف الذي كان يصبوا إليه في التاريخ المذكور سابقًا، أكثر من 150 منخرطاً من جامع الزيتونة فقط؛ كان جلُّهم من الطلبة الجزائريين الذين كانوا يزاولون دراستهم هناك، وفي أواخر سنة 1937م بعد أن أسس جمعية شبيبة شمال إفريقيا الموحدة انتقل الجباري إلى الجزائر قصد التعريف بهذه الجمعية، ففتح لها ثلاثة فروع (عنابة- سوق أهراس- قالمة)، بحيث ألقي القبض عليه وهو يخطب في قالمة.[75]

كما تجدر الإشارة إلى أن العيد الجباري كان يتقلَّد في سنة 1936م خطة رئيس مساعد للشبيبة الدستورية وهي منظمة ناضلت من أجل خدمة الشباب التونسي ومستقبله، وقد أشارت التقارير إلى وجوده بالجزائر في أوائل 1937م، صحبة رفيقه أحمد بن سليمان للقيام بجولة دعائية لفائدة جمعيته بالاتصال مع حزب الشعب الجزائري[76]، كما تشكَّلت في رحاب الجامع الأعظم جمعية طلابية جزائرية أخرى ذات طابع ثقافي اجتماعي خلال فترة الثلاثينات هي جمعية الشباب السوفي الزيتوني.

جاء في إحدى المراسلات المحررة من طرف المصالح الأمنية التابعة للمقيم العام بتونس أنها «جمعية تأسست من طرف جماعة من الجزائريين من أصول وادي سوف، بهدف مساعدة مواطنيهم الطلبة في الجامع الكبير، وهُو تجمع لا يملك أي صبغة سياسية»[77]، كما تضمنت مراسلة أخرى تقريراً مفصلاً من طرف المصالح الأمنية موجه إلى الإقامة العامة حول ظروف انعقاد الجمعية العامة لهذه الجمعية جاء فيه[78] «أن هذه الجمعية قد انعقدت تحت رئاسة الطالب الحفناوي هالي لخضر (26 سنة) بالحاضرة أواسط شهر جويلية 1936م وأسفرت عن وضع قانون أساسي للجمعية يحدد أهدافها كما يلي:

- توطيد كل أشكال الصداقة والأخوة بين الطلبة الجزائريين الدارسين بجامع الزيتونة بصفة عامة وبين الطلبة من أصول سوفية بصفة خاصة.

---

[73] – منها: مراسلة المقيم العام بتونس إلى الحاكم العام بالجزائر:
I.S.H.M.N, A.N.O.M, A46, C25 H33, Dossier 3, doc n°485, Date 12/02/1938.

[74] – عمار هلال، نشاط الطلبة، 137.

[75] – نفسه، ص ص(138- 140).

[76] – العياشي، البيئة الزيتونية، ص137.

[77] – A.N.T, Série E, c509, Dossier 252, doc n° 5.

[78] – A.N.T, Série E, c509, Dossier 252, doc n° 5. راجع أيضاً:
مراسلة مؤرخة في 1937/04/28م تحت رقم (10.057 M).

- تكوين رابطة بين مجموع الطلبة بهدف تيسير العقبات التي عادةً ما تصادف الطالب الجزائري بتونس سواءً منها المادية أو المعنوية.
- إنشاء صندوق للجمعية من تبرعات واشتراكات الطلبة المنضوين داخل الجمعية وفق شروط وضوابط معينة.
- تحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي بين أفراد الجمعية.
- تفعيل النشاط الثقافي والإبداعي والأدبي في وسط الطلبة الجزائريين الدارسين بجامع الزيتونة.

وقد تمخضت الجمعية العامة السابقة الذكر عن تشكيلة شبابية متنافسة متميّزة بشبه سيطرة للهاليين- أخوال الأستاذ أبو القاسم سعد الله –وفق الترتيب التالي:

- الرئيس: الحفناوي هالي لخضر (26 سنة)، طالب من وادي سوف.
- النائب: محمد مناعي (28 سنة)، تاجر من وادي سوف.
- الأمين العام: الطيب هالي (22 سنة)، طالب من وادي سوف.
- النائب: العيد هالي بن لطرش (22 سنة)، طالب من وادي سوف.
- المقتصد: عمار باري (35 سنة)، طالب من قالمة.
- النائب: عبد الهادي هالي بن علي (22 سنة)، طالب من وادي سوف.
- الأعضاء: (يوسف هالي إبراهيم (24 سنة) طالب، الطاهر علالي (23 سنة) طالب، بشير هالي عثمان (28 سنة) طالب، صالح هالي الطيب بوغزولة (24 سنة) طالب، عثمان هالي أحمد إبراهيم (24 سنة) طالب، بلقاسم هالي أحمد (20 سنة) طالب.

وقد مُنح الترخيص لهذه الجمعية في 28 جانفي 1937م، في مراسلة من مصالح الحكومة العامة تحت رقم (6- 2373).[79]

ومن المعلوم أن رئيس هذه الجمعية من مواليد قمار، تعلم المبادئ الأولية في اللغة العربية والفقه الشرعي بمسقط رأسه، التحق بجامع الزيتونة، وتخرَّج منه بشهادة التحصيل نشر العديد من الأشعار في صحيفتي الشهاب والبصائر، إضافة إلى مقالات أخرى في التربية والإصلاح، عيّنته الجمعية بعد عودته إلى الجزائر أمين سر مكتب لجنة التعليم العليا، وبعد الاستقلال درس في العديد من المدارس، ثم تقلَّد منصب مدير في وزارة الشؤون الدينية، إلى غاية وفاته في 17 جانفي 1965م[80]، وقد كان لهذه الجمعية عدة مساهمات وأعمال تخدم أهدافها العامة من التأسيس قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية نتلمسها من جملة المقابلات التي قمنا بها منها:

- التكفل بمعاناة الطلبة الجزائريين وخصوصاً منهم السوفيين والاهتمام بمشاكلهم ومحاولة التصدي لها وإيجاد الحلول المناسبة.
- إجراء دورات تكوينية مكثَّفة (مراجعة) في عدد من المواد المدرّسة للطلبة المقبلين على امتحانات شهادتي الأهلية والتحصيل.

---

[79] - A.N.T, Série E, C509, Dossier 252, doc n°4.

[80] - IBID.

- إحياء بعض المناسبات الدينية والوطنية كحفل المولد النبوي الشريف والهجرة النبوية، وكذا ذكرى وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس.
- ومن برامجها الثقافية إقامة المسابقات الشعرية حول النهضة الإصلاحية والاجتماعية والثقافية، وقد كانت تلك التظاهرات المختلفة تجلب عدداً معتبراً من طلاب الجامع الأعظم، إضافة إلى إعداد الخطب المتنوعة وتعلّم إلقائها.
- مراقبة التلميذ السوفي من الناحية الدراسية، والناحية الأخلاقية ليكون جديراً بالاسم الذي يحمله.

وفي حدود ما أمكننا الإطلاع عليه من وثائق أرشيفية أو بما أطْلعنا به الشيوخ والأساتذة الزيتونيين الذين تقابلنا معهم، فإننا لم نعثر على أي إشارة توحي بوجود أي نشاط لهذه الجمعية بعد الحرب العالمية الثانية، ولا ندري ما هو مصير هذه الجمعية.

ويعتبر النشاط الجمعوي الطلابي السوفي خلال النصف الأول من الأربعينات امتداداً للنشاط الذي بدأ قبل ذلك بنحو عشر سنوات (1943م)، فقد أسسوا أو انخرطوا بعد الحرب العالمية الثانية في عدد معتبر من النوادي والتجمعات ذات الأهداف الأدبية والصحفية والدعوية...ومن هذه الجمعيات مثلاً تلك التي أسسها الطالب أبو القاسم سعد الله «القماري» رفقة زملائه من الجزائر وتونس عام 1952م، وهي رابطة القلم الجديد حيث يروي ذلك الأستاذ أبو القاسم سعد الله بقوله: «لقد اجتمع عدد من الأدباء الشبّان ومعظمهم تونسيين ومعهم بعض الجزائريين ومنهم أنا، وألّفنا رابطة أطلقنا عليها اسم (رابطة القلم الجديد)، ولا أذكر الآن من أعضائها سوى الشاذلي زوكار، وابن حميدة، ومنور صمادح من تونس ومحمد علي كرام من الجزائر«وادي سوف»، وليس لهذه الرابطة قانون أساسي ولا مقر رسمي، وإنما هي صحبة الأدب والشعر واجتماع الظرف والألفة، فكنَّا أحياناً نجتمع في بيت أحدنا بمدرسة داخلية وأحياناً في الهواء الطلق وأحياناً في مقهى.

وكان الحديث دائماً عن الإنتاج الأدبي لنا أو لغيرنا وما نشرته المجلات والجرائد في هذا الميدان، وقراءة أشعارنا على بعضنا، وجميع هؤلاء كانوا —كما يدل اسم الرابطة إلى حد ما، شاعرين بالكبت الاجتماعي والسياسي والأدبي وقد ظهرت عندئذ بعض المجلات الجديدة كالندوة والفكر والمعارف وأذْكر أنني نشرت في المجلة الأخيرة، وفي البصائر الجزائرية والآداب البيروتية وغيرهما بعض شعري بإمضائي المرفق بعبارة (رابطة القلم الجديد) وقد انقطعْت بعد عودتي إلى الجزائر 1954م عن النشاط الأدبي الذي اعتدته في تونس وخصوصاً علاقتي بإخوان الأدب في رابطة القلم الجديد..».

وعن نشاطات هذه الجمعيات يذكر أيضاً[81] « عندما كنا طلبة في تونس نظمت حوالي 1953م مسابقة تحت عنوان:« أمَلُك في مستقبل بلادك»، كنت حينئذٍ مسؤولاً على الجمعية التي نظّمت المسابقة فلم أشترك شخصياً فيها، ولكن الطلبة الذين قدَّموا مساهماتهم عبّروا عن آمالهم فيما يلي: «تحرير وطنهم من الاستعمار، ورفع شأن شعبهم بين الشعوب بالعلم والعمل، واستعادة ذكريات الماضي المجيد..».

لقد كانت الطليعة من هؤلاء الطلاب ينظّمون أنفسهم في جمعيات أو وداديات ثم ينتقلون منها إلى الأحزاب السياسية التي بواسطتها يصعدون إلى الدرجات القيادية من كفاح مرير وطريق مليء بالأشواك والتحديات، وطبيعي

[81] – سعد الله (أبو القاسم)، هموم حضارية، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2005م ، ص ص(49- 50).

أيضاً أنك لو سألت أي طالب واعٍ من المغرب العربي في الأربعينات والخمسينات عن آماله في مستقبل بلاده لكان جوابه واحداً تقريباً، وهو أنه يؤمل أن يرى بلاده حرة كريمة، مستقلة القرار السياسي والاقتصادي معتزة بشخصيتها وإنجازاتها في الماضي والحاضر، ذات دور عالمي مشرف، ولكنه كان يدرك أن تحقيق ذلك لن يكون سهلاً، ولذلك فإنه كان مستعداً للتضحية والفداء وارتكاب المخاطر من أجل هدفه.

وعموماً يمكن القول إن هذا التواصل بين الطلبة وجمعياتهم الثقافية والاجتماعية.. طوال فترة دراستهم قد ساهم في توثيق علاقاتهم بالوطن عامة، وهو ما يفسر عودتهم من جديد للمسك بزمام هذه الجمعيات بعد تخرجهم كمسؤولين ومسيرين، وبعد القرار الذي اتخذته جبهة التحرير الوطني الذي ينص على حلّ كل الأحزاب والمنظمات الجزائرية والتحاق كل الجزائريين فرادى بالثورة، وعلى إثر إضراب الطلبة الشهير 19 ماي 1956م لبّى الطلبة السوفيون بتونس طبعاً النادي، وهاجروا مقاعد الدراسة جماعياً،حيث تجنّد منهم الكثير، وصار الشغل الشاغل لكل واحد منهم التفكير في كيفية تقديم خدمة لوطنه الجريح.

في خضم هذا الحماس الثوري الفياض والنظام الجبهوي المحكم بدأ هؤلاء الطلبة بتونس والذين عجزوا على حمل السلاح لسبب أو لآخر أو الذين انخرطوا في جيش التحرير الوطني ونعوا من الالتحاق بالجبل لأسباب صحية... بدأوا يفكرون في كيفية أخرى لتقديم مساهمة فعلية وأكثر فاعلية للثورة فكان هذا بالنسبة للبعض منهم عن طريق تكوين تنظيم شباني يضمن الاستمرارية للجيش ويمده بقوى شبانية جديدة متكونة جسمياً وعقلياً ووطنياً بالخصوص ومن كل الأوساط الشبانية (طلبة، أبناء الجالية، لاجئون...).

هكذا بدأت تبرز فكرة بعث تنظيم كشفي في إطار جبهة التحرير الوطني في أوساط الطلبة والشباب الجزائري بصفة عامة والذي كان آنذاك في مجمله إن لم نقل كله مهيكلاً في خلايا سرية لجبهة التحرير الوطني تعمل هذه الخلايا حسب مناهج ثورية مدروسة، وفي صائفة 1957م شارك عدد من الطلبة الجزائريون بتونس في مخيم صيفي أقامته الكشافة التونسية بالمنطقة التي تدعى (الوطن القبلي) «وكان من بين الطلبة المشاركين الجزائريين في هذا المخيم إلى جانب التونسيين الإخوة: أبو عبد الله غلام الله، بايوي اسماوي، الطاهر حمروني، صالح اسماوي، عيسى حجوجة، محمد الصغير، رزاق لبزة، رابح جابة، محمد غلام الله، عمر بن الشيخ، إبراهيم بلعيدي...».[82]

وكان المخيم المذكور متنقلا ومشياً على الأقدام بكامل مدن المنطقة المذكورة من تونس العاصمة إلى نابل وقليبية وقربص وحتى الرأس الطيب، «بعد الرجوع من هذا المخيم مباشرة قمنا بتكوين عشيرة جزائرية انخرط فيها إلى جانب الذين شاركوا في هذا المخيم السابق ذكرهم عدد آخر من الطلبة، فكانت تضم 37 جوالا، منهم (مبارك العيفة، عبد الله عثمانية، عبد المجيد تاغيت (تاريكت)، رمضان الجمعي عبد المالك ساسي، الأخضر عمياز، محمد الشيخ قادري، غازي عصمان، محمد بابا علي، فضيل طوبال نور الدين السايح، محمد بوادو، محمد الحاج أحمد، حسين الحاج أحمد، سعد نعمان، صالح مرابط، عبد القادر لعجال نور الدين قرطبي، علي رزوق، بشير قرطبي...، كانت هذه العشيرة تعمل في بداية تكوينها ضمن الكشافة التونسية حتى تكتسب خبرة وتكويناً صحيحين، سميت هذه العشيرة (العشيرة

[82] – لبزة (محمد الصغير رزاق)، "الكشافة وجيش التحرير الوطني"، الكشافة الإسلامية الجزائرية، الجزائر، دار هومة، 1999م ص(60- 61).

السابعة)، هذا الرقم أعطي لها حسب ترتيب عشائر الكشافة التونسية (جهة تونس).[83] وأشهر الأفواج الكشفية الجزائرية بتونس العاصمة انتشارًا وحركية هو فوج الجبل الأحمر الذي تشكّل أساساً من طرف الطلبة "السوافة" بتونس والجالية الجزائرية المؤلفة من المهاجرين واللاجئين.. حيث كانت مدرسة الجيل من الجوالة التحقوا فيما بعد بصفوف جيش التحرير الوطني للدفاع عن الوطن[84].

وهكذا بلغ عدد الشباب الجزائري المهيكل في الحركة الكشفية الجزائرية بكامل التراب الجمهورية التونسية أكثر من 10000 شاب وشابة، وكان الطالب الزيتوني محمد الطيب الثعالبي (سي علال) «ذي الأصول السوفية» عضو المجلس الوطني للثورة هو المسؤول الأول عن النظام الكشفي الجزائري بكامل التراب التونسي.

كما تولى عدد من الطلبة «السوافة» وخصوصًا منهم من كان على وشك التخرُّج إلقاء بعض المسائل في اختصاصات أدبية أو علمية على تلامذة الأقسام النهائية حول بعض المسائل المدرجة في البرامج الرسمية وكانت المبادرات تصدُر من قبل الطلبة أنفسهم شعورًا منهم بوُجوب تأطير ودعم الزاد المعرفي للتلامذة المقبلين على امتحانات الارتقاء أو التخرّج، أو باقتراح من جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين. بالإضافة إلى ذلك تولى بعض الطلبة «السوافة» وخصوصًا منهم من كانت لهم موهبة القلم، الكتابة في بعض الصحف الأدبية والثقافية، أو تأمين مراسلة بعض الصحف الجزائرية مثل: الشهاب، البصائر، والمغرب العربي، الشعلة، ميزاب، المغرب، المجاهد، المقاومة الجزائرية...، ومن الصحف التونسية: الإرادة، الأفكار، التقدم، الزهرة، الصباح، النهضة، الصريح، صوت الطالب الزيتوني، العمل، سان الشعب، الأسبوع..، ومن المجلات : الثريا- المباحث- الزيتونية- الشباب التونسية- الصادقية[85]، وغيرها من الصحف والمجلات الأدبية والفكرية المختصة التي كان يرسل إليها الطلبة مقالاتهم وإسهاماتهم حول بعض القضايا الثقافية، رغم بُعدهم عن الوطن ومشاغل الدراسة، غير أن هذا الصنف من النشاط الصحفي يبقى محدودًا مقارنةً بنظيره السياسي والحزبي كما بيّنا سابقًا.

لقد ساهم طلبة منطقة وادي سوف مع عصبة من الكتاب المفكرين الجزائريين والتونسيين في تأسيس الرابطة العلمية سنة 1924م، وهذا سعياً منهم «لإيجاد وسيلة فعالة للتضامن الفكري والقلمي بينهم، وخدمة الحركة المليّة ببلادهم ونفع شعبهم والسعي في رفع مستواه العلمي والسياسي والاجتماعي».وبالإضافة إلى مساهمتهم الفعَّالة في تأسيس جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين عام 1934م، وكان من إنجازاتها في عهدة المهدي البوعبدلي البجائي«1933- 1934»، هو إقامة الطلبة فيما يبدو احتفالات عديدة في نطاقهم الخاص بمناسبة استقبال الجدد أو توديع الطلبة المتخرجين، ومن هذه الاحتفالات، الاحتفال الذي أُقيم عند تكوين الجمعية؛ وقد ألقى في هذه المناسبة أحد الطلبة الشعراء، وهو محمد الحفناوي بن الأخضر السوفي قصيداً شعرياً، نشرته جريدة "الصراط" الجزائرية في عددها الصادر يوم 01 جانفي 1934م، بعنوان «احتفال الطلبة الزيتونيين الجزائريين بتونس».[86] وبدءاً من شهر

---

[83] -نفسه، ص86.

[84] - كواتي (مسعود)، "الكشافة الإسلامية الجزائرية في الجبل الأحمر بتونس"، الكشافة الإسلامية الجزائرية، الجزائر، دار هومة 1999م، ص ص(78- 87).

[85] - للتوسع يراجع: خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، ج2، الجزائر: دار البصائر، 2008.

[86] - نفسه، - راجع أيضاً، الجابري(محمد الصالح)، النشاط العلمي، ص 110.

جانفي1935م تشكَّلت هيئة إدارية جديدة للجمعية ترأسها الشاذلي المكي «أصيل تبسة»، ومن طلبة الجنوب الشرقي ضمت: الأديب الوردي التبسي، محمد الشبوكي التبسي، عبد الله الزربي البسكري، الأخضر السائحي التقرتي، علي بن محمد السوفي وغيرهم....

وفي شهر أفريل من عام 1946م، تم انتخاب هيئة إدارية جديدة برئاسة الطالب أحمد بوروح (بورزاق)، وأوكلت أمانتها العامة إلى الطالب الطيب الشريف من قادرية وادي سوف، وفي الهيئة الإدارية الخامسة للجمعية والتي ترأسها الطالب عيد الرحمان شيبان، ضمت في عضويتها من طلبة الجنوب الشرقي: عبد الحميد بوتمجت السوق أهراسي، و الطيب الشريف السوفي، سعدي الطاهر حراث التبسي، والعلوي محمد الطيب.. وغيرهم.

ثم آلت رئاسة الجمعية في شهر سبتمبر 1947م إلى الطالب محمد مرازقة في انتخابات تجديدية.. وقد ضمت هذه الهيئة الإدارية السادسة (1947-1948) من طلبة الجنوب الشرقي: محمد الطيب العلوي، أبو القاسم البيضاوي، ثابت الأزهري، عبد الحميد التيجاني، عبد الحميد مهري..وغيرهم

وفي مطلع سنة 1949م جرت انتخابات لتجديد مكتب الجمعية، ووقع تنافس حاد بين تياري (ج.ع.م.ج) و(حزب الشعب)، وانبثقت عنها هيئة إدارية (موالية لحزب الشعب)جاء على رأس هيئتها التنفيذية عبد الحميد مهري وضمت في عضويتها من طلبة الجنوب الشرقي: الطاهر حميدات (كاتبًا عامًا)، ومبارك ماضي، ، ومحمد عيساوي، وكلهم من أتباع حزب الشعب، أما عن الجناح الآخر (جناح جمعية العلماء المسلمين)، فإنه بعد أن فشل في انتخابات التجديد بالجمعية لفترتين متتاليتين اضطر أتباع هذا الجناح – كما يقول محمد الميلي- إلى التفكير في إنشاء هيئة تضمهم، خصوصًا بعد أن احتدَّ الصراع واشتدَّ الصدام بينهم وبين التيار الآخر الذي كان يبدو عليه انه قد فاز بكل جوالات المواجهة، وانطلاقًا من جملة من الوثائق والمقالات والبيانات يتبين أن هذا الجناح قد حاول التشكُّل بصيغ مختلفة قبل هذا التاريخ (جوان 1948)م وأشهر ما أطلق على هذا الجناح هو جماعة البعثة الجزائرية أو جمعية البعثة الزيتونية لجمعية العلماء المسلمين، وترأسها لثلاث عهدات متوالية الطالب السوفي أبو القاسم سعد الله (1951-1952- 1953)م.

وبعد القرار الذي اتخذته جبهة التحرير الوطني الذي ينص على حلِّ كل الأحزاب والمنظمات الجزائرية والتحاق كل الجزائريين فرادى بالثورة، وعلى إثر إضراب الطلبة الشهير 19 ماي 1956م لبى الطلبة السوفيون بتونس هذا النداء، وهجروا مقاعد الدراسة جماعياً، حيث تجنّد منهم الكثير، وصار الشغل الشاغل لكل واحد منهم التفكير في كيفية تقديم خدمة لوطنه الجريح.

لقد كان نشاط الطلبة السوفيين السياسي(مثلاً) يتجاوز في غالب الأحيان حدود الجامع الأعظم ليكتسح الساحة السياسية العامة، ذلك أن تعرضهم لضغوط نظام الحماية ومضايقاته كان يدفعهم إلى توخي الطرق النقابية تارة وإتّباع أساليب الأحزاب السياسية تارة أخرى، وقد كانت طرق عملهم تكتسي صبغة شبه سرية مطلقة حيث كانوا يعملون في إطار نقابي وثقافي أو ضمن لجان الدفاع عن حقوق الطلبة عموماً، ... بواسطة المناشير والمعلقات والبلاغات... والمقالات المنشورة في الصحف العربية وعن طريق الاجتماعات الليلية المنعقدة في مدارس سكنى الطلبة على وجه الخصوص والاجتماعات العامة والمظاهرات في الشوارع. وكان من هؤلاء الناشطين : الطاهر بن عيشة،

عمامرة رابح تركي، محمد الطاهر بن محمد الصغير العلاني، حني بن معمر الصغير، إبراهيم بن سليمان كلكامي، أبو بكر حاج عيسى، بوصبيع صالح، بوقطاية عثمان، بوكوشة حمزة(شنوف)، التليلي محمد الطاهر الجنيدي خليفة، خيران علي بن سعد، دربال محمد الدين، ساسي مناعي بن السايح محمد اللقاني، السائحي عبد القادر الأخضر، السائحي محمد الأخضر، سعد الله علي. سعد الله أبو القاسم، بن سليمان إبراهيم، الشريف الطيب، شكيري عمر أبو بكر، بن الشيخ محمد الشريف. عبد الرحمان بن أحمد بن لخضر، عبد السلام محمود. بن عطايب مصباح، بن علي عبد الحق، العوامر إبراهيم، قسوم عبد الرزاق، كرام محمد علي، بن لطرش العيد، ابن الهاشمي الشريف عبد العزيز، الياجوري عبد القادر، عبد الحميد بن محمد السلمي، ومحمد الأمين ابن الشيخ الطاهر بن بلقاسم، محمد الضيف بن الإمام بن سعد، معراج محمد دربال، عبد القادر بن عمر الفرجاني، الشريف محمد الطيب بن محمد الأمين، حماني بلقاسم بن أحمد العراج، محمد دربال، محمد الطاهر بن محمد الصغير العلالي الأخضر بن علي تليبه، إبراهيم بن العيد السوفي، ترعة الأمين بن أحمد بن علي بن أحمد، الطيب بن الحاج عبد القادر، محمود بن محمد القروي بن علي، جودي محمد العيد بن الطاهر، إبراهيم بن سليمان ميدقية، هبيتة بن الجيلاني بن إبراهيم بن محمد، محمد العربي بن جرج خطراوي، أبو زرواق أحمد بن محمد، يوسف الأخضري الزقيمي، الحسين محمد الصغير بن الشريف، سعيد بن محمد قليل، محمد السعيد ابن الشيخ السحنوني، العراج بن محمد دربان، محمد الضيف بن الإمام محمد، الصادق بن العيد، الشريف محمد الطيب بن الإمام، عبد القادر بن عمر الفرجاني، حني معمر بن الصغير، محمد بن محمد القروي بن علي، محمد الطاهر بن محمد الصغير العلالي .....والقائمة طويلة جداً

الخاتمــة:

إن هذه السطور المختصرة عن طور الرحلة العلمية في اتجاه تونس وجامع الزيتونة ترسم لنا الصورة الأولى من صور تطلع الجزائري منذ بداية تأسيس أولى المراكز العلمية بتونس، إلى التفقه في الدين والاستزادة من علوم العربية لتعميق صلاتهم بالحضارة والدين، كما ترسم لنا كذلك مدى ما كان الجزائريون يكابدون من المشاق في سبيل المعرفة وما يواجهون من الصعوبات في ظروف كانت الرحلة العلمية فيها كثيرة المخاطر بدائية الوسائل على أن هذه الظروف الصعبة والوسائل البسيطة قادت هؤلاء العلماء إلى تحقيق شتى رغباتهم وتطلعاتهم ومكّنتهم بنبوغهم وجِدِّهم من تأسيس عدة مراكز كانت على مرّ الفترات التاريخية محطات لرجال العلم، الأمر الذي مكّن من ازدهار الحركة العلمية والإصلاحية في ربوع الجزائر، وأبقى على الوشيجة الحضارية التي كانت تشدّ بين الجزائر عموماً، والجنوب الشرقي الجزائري خصوصاً وتونس أو بالأحرى بين الجزائر والمشرق، ولا شك أن طور الرحلة العلمية هو الذي ساهم في الحفاظ على ما للجزائر اليوم من تراث زاخر بأسماء الأعلام والمؤلفات وهو الذي أبقى الجذوة متقدة في نفوس الأجيال الصاعدة الذين ترسّموا خطى الآباء في اتجاه جامع الزيتونة.

وقد خرجنا من هذه الدراسة بالنتائج التالية:

- أهمية إعادة قراءة حقائق التاريخ ودراستها بموضوعية واستخلاص المناهج والتجارب منها.
- أهمية إحداث التواصل الروحي والعاطفي والحضاري بين أجيال الأمة الإسلامية.

- أهمية الإطلاع على الأطروحات النظرية والتجارب العلمية لرجال الإصلاح الديني في الجزائر إبّان الفترة الاستعمارية القاسية.
- أهمية معرفة عملية البعث الحضارية ومعرفة أدواتها وآلياتها ومنطلقاتها ووسائلها وغاياتها كما اضطلع بها رجال الإصلاح الديني في الجزائر.
- إن التعليم الزيتوني بالجامع الأعظم وفروعه كان عامل وحدة وتقارب بين الجاليات الإسلامية المقيمة بتونس والشعب التونسي، ففي رحاب الجامع الأعظم جلس الطالب الزيتوني والجزائري والليبي المغربي وغير ذلك من الوافدين من أقطار إسلامية أخرى.
- قراءة تاريخنا الجزائري الحديث والمعاصر ولاسيما إبان الفترة الاستعمارية من منظور الدراسات الدعوية والإصلاحية والإحيائية والخروج من دائرة القراءة المظاهرية والشكلية للتاريخ والأحداث التي ارتهن فيها غالبية دراسي التاريخ الجزائري الحديث والمعاصر.

بعد سعينا إلى أبعد الحدود إلى الإجابة عن الإشكاليات التي طرحناها على أنفسنا في بداية البحث ولئن لم يكن جوابنا عنها بنفس القدر والتفاصيل، فإن ذلك يعزى أساسًا إلى تقديمنا للجوانب الهامة على المهمة التي يمكن أن نجد الإجابة عنها في مواقع أخرى، وقد هيّمن الطابع الإخباري والتاريخي على جزء هام من البحث وعدم التركيز على الجانب التحليلي، فإن ذلك يعود إلى تأثير "تدفق المادة الأولية وغزارتها" من جهة، وما تتطلبه عملية التحليل من ربط بجوانب أخرى قد تخرج أحيانًا عن الموضوع الرئيسي للبحث وتحدث "قطيعة" في تسلسل الدارسة وبنائها ولذلك فإن الحاجة متأكدة لاستغلال هذه المادة في التحليل والبحث حول مسائل أخرى متصلة بموضوع البحث.

أخيرًا أملنا أن نكون قد وفقنا في الجواب عن بعض الإشكاليات بتوضيح ما غمض، وتحليل ما استعصى منها ومن ثم يمكن اعتبار هذه الدراسة المتواضعة قابلة للنقد والإثراء والتجاوز بحكم ما يتولد عنها من جدل ونقاش من قبل الباحثين والمهتمين.